عزيز نسين

أسفل السافلين



قصص

ترجمة: عبد اللطيف عبد الحميد

أسفل السافلين

دار الحصاد للنشر والتوزيع

دمشق ص. ب: ٤٤٩٠
هاتف: ٢٤٦٣٢٦

الطبعة الأولى: ١٩٩٣

عزيز نسين

أسفل السافلين

قصص

ترجمة: عبد اللطيف عبد الحميد

«سبق صحفي»

ثمـة قانون متعارف عليه في الصحافة : «إذا عضّ الكلب الإنسان ، فإن مثل هذا الخبر لن يثير أحداً . لكن إذا عضّ الإنسان الكلب ، فإن ذلك سيكون سبقاً صحفياً ! . . . » .

* * *

اقتحم كلب باب هيئـة تحرير أكثـر الصحف شهـرة في البلد. وبـما أن العاملين، لم يعتادوا على دخول الكلاب إلى هيئة التحرير، هكذا وبكل بساطة، لذا، فقـد انـدفعـوا وراءه. أمـا الكلب فسرعـان ما أدرك، أنهم سيمسكونه، ويقذفون به خارج الباب. لذلك توقف وقال:

ـ دقيقة، من فضلكم يا سادة.

انعقدت ألسنة المتعقبين وراءه: ما الذي يمكن فعله مع كلب يتحدث بصوت إنساني. هل عليهم أن يتحدثوا معه كالكلاب أم بشكل إنساني وباحترام؟

على أية حال، سألوه عما يريد. فأجابهم الكلب، أنه يريد مقابلة رئيس هيئة التحرير.

ـ إنه في الاجتماع.

ـ إذاً مع صاحب الجريدة.

ـ هو الآخر في الاجتماع.

ـ إذاً مع أحد الموظفين المسؤولين.

كان الجميع في الاجتماع الصباحي يناقشون العدد الأخير للجريدة. أعلن الكلب، أن لديه خبراً خارقاً وعاجلاً، وألحّ كي يسمحوا له بالدخول إلى قاعة الاجتماع.

دفع أحد المستخدمين الباب، ودخل إلى قاعة الاجتماع. وحول الطاولة، جلس أعضاء هيئة التحرير وعددهم أربعة عشر عضواً. توجه المستخدم قائلاً لصاحب الجريدة:

ـ هناك كلب يرغب في الحديث إليكم يا أفندي.

صرخ صاحب الجريدة، وهو إنسان متزن جداً:

ـ وهل من كلاب أخرى بعد!؟

أجاب المستخدم باحترام:

ـ لا أعرف من أي سلالة هو. إنه كلب جميل ذو صوف متجعد. يحمل طوقاً على عنقه. وهذا يعني، أن له صاحباً. وهو من الجنس اللطيف، هكذا بالضبط. . . أي كلبة.

ضحك الجميع ما عدا صاحب الجريدة، فقد حافظ على هيبته الجدّية.

ـ أنت تعرف، بأن لدينا اجتماعاً. . .

ـ لقد شرحنا لها كل شيء ـ قال المستخدم ـ لكنها تقول، أن لديها خبراً هاماً وخارقاً، وأنها ترغب في مقابلتكم بأسرع ما يمكن.

ـ دعها تدخل.

فتح المستخدم درفة الباب وأدخل الكلبة.

ـ اعذروني لهذا الإزعاج لو سمحتم ـ بدأت الكلبة ـ لقد جئتكم بخبر هام جداً.

وعند عبارة «خبر هام» استعد الجالسون ـ وكلهم صحفيون محنكون وبارعون في العمل الصحفي للاستماع، حتى أنهم نسوا أن يندهشوا من أن الكلبة تتحدث بصوت إنساني.

ـ ألم تصرحي بهذا الخبر لجريدة أخرى؟ ـ سأل رئيس التحرير.

ـ لا، لقد أتيت إليكم مباشرة، لأن صاحبي يقرأ جريدتكم بالذات.

ـ وما هو خبرك؟

ـ لقد عضني إنسان!

قهقه الحاضرون جميعهم، بما فيهم صاحب الجريدة.

ـ يبدو أنك لا تعرفين لغه البشر فحسب، بل وقوانين الصحافة أيضاً. . .

ـ كلمة شرف كلبية! . . ـ استدارت الكلبة إلى الوراء، وهي تشير إلى أثر العض على الفخذ الأيسر.

ـ هذا معروف للجميع منذ أمد بعيد ـ علق رئيس التحرير.
ـ ما المعروف؟ اندهشت الكلبة.
ـ أن الجريدة تهمها واقعة، عندما يعض الإنسان الكلب، وليس الكلب الإنسان.

أما صاحب الجريدة، فلم يسمح للكلبة أن تفتح حنكها، إذ أعلن فوراً:
ـ مثل هذه الحيل لا تنطلي علينا. من الواضح أنك تبحثين عن الشهرة... ولعلك تحلمين بنشر صورتك في الجريدة ـ لا جدوى من ذلك يا بنيتي...

وبمخاطبته للكلبة «يا بنيتي» وأمام أعضاء هيئة التحرير، أحمرّ وجه صاحب الجريدة رغماً عنه، لأنه هكذا يخاطب النساء العاملات في الجريدة. ثم تابع بعد لحظات من الارتباك:
ـ نعم... هكذا إذاً... كفاك تنبحين كذباً ـ إنسان قام بعض كلبة... أية جريدة ستنشر مثل هذا الخبر! على أية حال باستطاعتك أن تنشري إعلاناً فيها لو توفرت لديك النقود.
ـ إنك تخطىء الظن بي تماماً يا أفندي. فأنا إطلاقاً لا أسعى للشهرة، ولست عطشة لإثارة الضجة.. صدقني من فضلك، لقد عضني إنسان بالفعل.
ـ ما الذي تبغينه إذاً؟
ـ ألا يجوز، أن يكون الإنسان الذي عضني مسعوراً.. وربما سيعض الكلاب الأخرى. فإذا نشرت الجريدة مثل هذا الخبر فإن ذلك سيكون بمثابة تحذير للسكان من الخطر، ومن عضات جديدة. كما يجوز، أن الوقت ليس متأخراً ليتم إنقاذ ذلك الإنسان وتقديم اللقاح له.
ـ وكيف باستطاعتنا إيجاد ذلك الإنسان؟
ـ إنه صاحبي.
ـ صاحبك، عضك؟ اندهش صاحب الجريدة.
ـ نعم، يا أفندي.

ـ عجيب! . . . ومن سيصدقك؟!
ـ إنني أقول الحقيقة. . . وبإمكانك أن تجري اختباراً.
ـ يبدو أنك أغضبت صاحبك لدرجة لم يستطع تمالك أعصابه فعضك. . .
ـ لم يعضني وحدي فحسب، بل وعض زوجته أيضاً.

توجه صاحب الجريدة بالكلام إلى الجالسين قائلاً:

ـ أعتقد، أن من حق الإنسان، أن يعض زوجته، أو أية امرأة تنوب عنها، أليس ذلك صحيحاً يا أصدقائي؟

رد عليه أحد أعضاء هيئة التحرير فوراً:

ـ طبعاً، يمكن أن تحدث بين الزوج وزوجته أشياء أكثر تطرفاً.
ـ وهل عض صاحبك زوجته في غرفة النوم؟ ـ سأل أحد الحضور.
ـ لا ـ أجابت الكلبة ـ لقد كانت قد خرجت من المرحاض لتوها.
ـ هذه المسألة، لا تخضع للزمان أو المكان ـ علق صاحب الجريدة.
ـ لكنه هجم عليها كالمسعور، وعضها. ـ أكدت الكلبة.
ـ كان مسعوراً، أم لم يكن. . . وهل بالإمكان التأكد من ذلك في مثل تلك الحالة؟ أليس ذلك صحيحاً يا أصدقائي؟

تابعت الكلبة:

ـ ولكن لعابه قد سال.

قال رئيس هيئة التحرير مقنعاً:

ـ إن لعاب الإنسان يمكن أن يسيل في مثل تلك الحالات. . .

قال صاحب الجريدة، وكأنه يريد حسم النقاش:

ـ لا يا سادة، لا يمكن أن يكون هذا الخبر، كمادة صحفية. . . فالجميع يعرفون. . .
ـ أنا أفهم ـ قاطعته الكلبة ـ فالناس مقتنعون بأن الإنسان لا يمكن أن يعض الكلاب. فعندما يعض الكلب الإنسان، فإن ذلك ظاهرة عادية. لكن فكروا،

ألا يمكن أن يحدث العكس؟ ولتكن تلك من أندر الحوادث، لكن أليس من الجائز، أن يحدث ذلك فجأة؟

ـ ما قصدك؟

ـ أن يُسعر الإنسان، ويعض الكلاب.

ابتسم صاحب الجريدة برفق وقال:

ـ كفاك خداعاً. . .

ـ وهل تخافين من أن تصبحي مسعورة بعد ذلك؟ ـ تدخل رئيس هيئة التحرير في الحديث.

ـ إنني لست خائفة على نفسي، إذ أن صاحبي اهتم بي ولقحني. ولن أصبح مسعورة. . . إنني خائفة على الكلاب الأخرى. وإذا كان الناس مثلكم لا يصدقون، بأن الإنسان يمكن أن يصبح مسعوراً، ويعض الكلاب، وإذا كانوا مثلكم لا يشكون بمعلوماتهم، وأنهم واثقون من معرفتهم لكل الأشياء، فإن أحوالنا نحن الكلاب، ستكون سيئة. وكالعادة، ستبدأ المعركة ضد الكَلَب، ثم يقتلون الكلاب.

وبالرغم من تأكيدات الكلبة، فإن صاحب الجريدة لم يرغب بنشر خبر عن عض الإنسان للكلبة. وطردوا الحيوان المسكين خارجاً.

اتجهت الكلبة إلى جريدة أخرى. وهي ليست شهيرة بهذه الدرجة، لكنها رضية إلى درجة كافية، وذات ميول فلسفية. وحتى هنا، قوبلت الكلبة بعدم فهمهم لها.

طافت الكلبة بكل الجرائد والمجلات. لكنها لم تتمكن من إقناع أحد، بأن إنساناً قد عضها. وقد اتفق الجميع في الرأي، على أن الكلبة تريد أن تصبح مشهورة.

وبعد أن فقدت الأمل في إيجاد من يفهمها في عالم الصحافة، توجهت كلبتنا إلى مدير الإذاعة، رغبة منها في إنقاذ الكلاب من الهلاك. لكن الأخير لم يرغب

حتى في سماعها، إذ أعلن فوراً، أنه لم يسمع في حياته ما يشبه ذلك، ولهذا السبب، إن أحداً لن يصدق خبراً عن عض الإنسان للكلبة. ولم تستطع الكلبة، أن تبرهن له، أن كل ما تريده فقط، هو منع انتشار وباء الكلب.

فقد مدير الأذاعة صبره وصرخ:

- إذا كنت ترغبين بنشر خبرك، فادفعي المال لقاء ذلك، وليكن خبرك في قسم الدعايات، لا في قسم الحوادث! . . .

- وهل الناس يصدقون الدعايات أكثر؟

- لا، طبعاً، لكن المستمعين سيعتبرون ذلك فكاهة. والفكاهة تجتذب الناس دائماً.

- ومن أين لي المال؟ - قالت الكلبة بحزن - فالمال عند الناس، لا عند الحيوانات. وهنا يكمن الفرق بين بني البشر والحيوانات، فالإنسان: حيوان ماليّ.

أما رأي مدير التلفزيون فكان، أن أحداً في البلد لن يصدق إمكانية عضّ الإنسان للكلب. فالجميع يعرفون، أن ما يحدث عادة، هو العكس.

- لكن، لماذا أنتم بنو البشر - اعترضت الكلبة - لا تشكون في ما تعتبرونه غير قابل للجدل؟ ألا يمكن أن تكونوا مخطئين؟ وهل من الصعب جداً، أن تهتموا ببحث موضوع، تعتقدون دائماً، أنكم تعرفونه جيداً؟

- لماذا نضيع الوقت في البحث أو الشك في مسألة ما، خاصة إذا كنا نعرفها؟ . . .

ما العمل، فكرت الكلبة طويلاً. وفي آخر الأمر، ذهبت إلى وزير الصحة «لو لم تتمكن الكلبة من الكلام، لما استطاعت الدخول إلى الوزارة ولا بأية حال من الأحوال» حدثت الكلبة الوزير بالتفصيل عن جوهر القضية، وشرحت له، بأنه يجب اتخاذ إجراءات فورية، وإلا فإن وباء الكَلَب سينتشر، وستهلك كلاب لا ذنب لها قطعاً.

ابتسم الوزير بعد سماعه للكلبة وقال:

- حتى أنت أدركت، أن الواقعة بحد ذاتها، وهي عندما يعض الإنسان الكلب،

تعتبر سبقاً صحفياً. وهل تعتقدين يا ترى، أن الناس أغبى منك؟ ـ وفجأة قطب الوزير حاجبيه بشكل مرعب وصرخ:

ـ انقلعي!... انقلعي من هنا!...

لوت الكلبة ذيلها، وقفزت إلى الشارع. ذهبت إلى وزارة الثروة الحيوانية، وإلى الإدارة المركزية للخدمات البيطرية، والعيادات البيطرية. حتى أنها ذهبت إلى مستشفى المصابين بداء الكلب. وفي كل مكان، كانوا يقولون لها الشيء نفسه:

ـ من قديم الزمان، والجميع يعرفون... لن يصدقك أحد... عادت الكلبة حزينة إلى البيت. وخلال ذلك الوقت، انتشر وباء الكَلَب في المنطقة. وقد أصبح الآن من الصعب التمييز، من عضّ من: هل الناس عضت الكلاب، أم الكلاب عضت الناس، أم أن الجميع يعضون بعضهم بعضاً؟

وقد اتخذت السلطات الرسمية الإجراءات التالية:

قاموا بتلقيح الناس. أما الكلاب، فراحوا يقضون عليها. كان بيت الكلبة خاوياً. فصاحب البيت وزوجته، لم يأخذوا اللقاح في الوقت المناسب. فمرضا ونقلا إلى المستشفى.

وفي عتمة الليل، هربت كلبتنا من المدينة، محاولة ألا يراها أحد. وفي الطريق، صادفت الكلبة بيتاً يسكنه عالم طاعن في السن. وعند هذا العالم كلب حبيب مسنّ. وبما أن هذا الكلب قد ترعرع في كنف صاحبه العالم، فقد أصبح ذكياً ومشهوراً وسط الكلاب، الذين يطلقون عليه بـ «المفكر».

نظر الكلب «المفكر» عبر النافذة إلى الطريق، ورأى الكلبة ـ كانا يعرفان بعضهما سابقاً ـ ثم نبح منادياً إياها:

ـ إلى أين تركضين؟

ـ أريد الحصول على تأشيرة خروج للسفر إلى الخارج!...

ـ ألا يعجبك العيش هنا؟

ـ وكيف لا ، إنه وطني . . . لكن من الغباء أن أموت بسبب حماقة لا شأن لي بها .
ـ إذا كنت تخافين من أن يصطادوك ، فإن كل شيء سينتهي قريباً ، وبإمكانك أن تنتظري إما في بيتك ، أو هنا . . .
ـ لا ، لست هاربة لا من الموت ولا من الخوف . . .
ـ مماذا إذن ؟
ـ المسألة ، هي أن الجميع هنا يعتقدون بأنهم يعرفون كل شيء . . .
ـ هذا يمكن أن يعني ، بأن أحداً لا يعرف شيئاً ـ نبح «المفكر» بتأمل وسأل : وإلى أين ستذهبين ؟
ـ بودي ، لو أجد مكاناً ، حيث الناس لا يعرفون كل شيء ، وحيث لايزالون يشكّون في معلوماتهم .
ـ لعلها مسألة مثيرة ـ انتعش المفكر ـ إن لدى صاحبي مكتبة جيدة . تعالي نبحث في المعاجم والخرائط والمصورات عن مكان كهذا ، يسكنه أناس بمقدورهم أن يشكّوا . . .

بحثا طويلاً في المكتبة . لكنهما لم يجدا الأماكن المطلوبة . قال المفكر وهو يغلق آخر مجلد للمعجم :
ـ لا توجد على الأرض مثل هذه الأماكن . . .
ـ وما العمل إذن ؟
ـ يبدو ، أنه علينا أن نذهب إلى أفراد سلالتنا . وإذا نجونا ، وانتظرنا بصبر تلك الأوقات ، عندما سيبدأ الناس بالشك في معارفهم المطلقة . . .

ساعد الكلب والكلبة بعضهما في التخلص من طوقيهما ، إذ قرضاهما ووضعاهما في المكتبة . ثم خرجا من البيت وسارا على الطريق باتجاه المدينة لكي يشاركا كلاب المدينة مصيرهم .

«أسفل السافلين»

تعرفت إليه في الغابة. فقد نصحني الأطباء بتبديل المناخ لفترة طويلة، وهكذا وصلت إلى هذه الأماكن.

استأجرت بيتاً في القرية. وها أنذا أتنزه لمدة أسبوعين كاملين في الغابات. وفيها يتعلق بالنزهات الطويلة، كنت أستأجر سيارة. وأثناء واحدة من تلك النزهات، تم تعارفنا.

ثمة بيت جميل مؤلف من طابق واحد، انتصب على مرج في الغابة، وقد تجمهر حوله القرويون من رجال ونساء وأطفال. يقع البيت على روضة خضراء صغيرة، بالقرب من جدول، كان ينبوعه يخترق الأرض هادراً، مندفعاً عبر المزراب المقعر في جذع شجرة، ليصب في مجرى متعرج تحيطه غابة كثيفة. وقد ذكرني ذلك ببطاقة بريدية ذات لوحة قديمة لمنظر طبيعي بهي الألوان.

خرجت من السيارة التي كنت أتنزه فيها، وفجأة، وبشكل غير متوقع أبداً، بدأ السائق يتذمر قائلاً:

ـ حتى السلام على هذا السافل خطيئة...

ـ عمن تتكلم هكذا؟ ـ سألت السائق وأنا غير فاهم كلماته.

ـ بالتأكيد عن مهندس الغابة هذا، وليس عن غيره.

ـ وما اسمه؟

ليذهب إلى جهنم هو واسمه أيضاً... لا نريد أن نعرف حتى اسمه.. لأننا لا نحترمه، إننا نسميه مهندساً فقط، والجميع هنا...

علمت، أن السائق الذي أقلني إلى هنا، كان إنساناً مستقيماً وغير حسود. ولهذا، فما الداعي لأن يكذب ويلفق كلاماً عن إنسان لازلت أجهله؟ وبما أنه عيّر

مهندس الغابة مجازفة، فهذا يعني أن المهندس يستحق ذلك. لكن، غريب أن تلتقي بمثل هذا السافل، وفي مكان شبيه بالفردوس!

حتى أنني فقدت الرغبة في الدخول إلى ذلك البيت. لكن الجمال الساحر أثر عليّ واجتذبني إليه ولم أتمكن من الصمود. وهكذا اتجهت إلى بيت مهندس الغابة.

لقد أثار انتباهي أولئك القرويون المتجمهرون على السقيفة: كانوا مرضى، ومنهم من كان يئن متألماً، مترنحاً من جانب إلى آخر. وآخرون لم يكن باستطاعتهم التحمل، فكانوا يتدحرجون على الأرض. وثمة من كان مضمداً بينهم.

ومثل هذا المنظر لا تراه إلا في المستشفى. صعدت ثلاث درجات خشبية ضخمة، وفتحت الباب الزجاجي، فوجدت نفسي في قاعة أو شرفة فسيحة يتوسطها سرير واطىء شبيه بتلك الأسرة التي توجد في عيادات الأطباء عادة. وأمام عينيّ مثُلَ منظر غير عادي إطلاقاً: ثمة رجل دفن رأسه في الوسادة على السرير وقد خلع سرواله. كان الدم يسيل من ساقيه العاريتين. وثمة رجل آخر كان يعالج المريض، وعلى ما يبدو أنه طبيب جراح، وامرأة هي الأخرى ممرضة. وضع الطبيب القطن على الجرح، ثم راح يضغط بكل ما استطاع من قوة، محاولاً إخراج القيح من الجرح. أما المريض، فكان يصرخ بأعلى صوته، وهو إما يرفع رأسه عن الوسادة، أو يجأر دافناً رأسه فيها. أما أنا، فلم أتمالك نفسي.

ظهوري لم يلفت انتباه أحد. فقد كان الجميع منهمكين بأشغالهم. توقف الطبيب عن إخراج القيح، ثم راح يمسح الجرح بالقطن. أما الممرضة، فبدأت تغسل الجرح بحمض أكسيد الهيدروجين، ثم ضمدته. أخيراً، رفع الطبيب رأسه، وما أن رآني، حتى ارتسمت على محياه ابتسامة بشوشة. لقد ابتسم وجهه، وعيناه، وأعتقد نظارتاه. مدّ يده إليّ مصافحاً كما لو أننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن بعيد.

ـ مرحبا.

صافحت يده. وبادلته رغماً عني، بمثل تلك الإبتسامة اللطيفة. لكنني ما أن تذكرت، كيف راح السائق يشتمه، حتى أكسبت وجهي تعبير اللامبالاة.
أثناء ذلك، وقف الفلاح على ساقيه ورفع سرواله وهو يحزم نطاقه.
- أمدّ الله بعمرك أيها المهندس بيك... شكراً للأخت الممرضة.
- لا تنس أن تأتي بعد يومين لنغير لك الضماد - قالت المرأة.
- بعد يومين... حسناً.. ولكنني لا أستطيع المجيء في النهار، فلديّ أعمال كثيرة... لو تسمحا لي في المجيء مساء.
- حسناً، تعال في المساء.
- دور من الآن، فليدخل - صرخ الطبيب فيما كان المريض يفتح الباب خارجاً.
دخلت فلاحة شابة تحمل طفلاً، وبدأت تشرح بالتفصيل للمهندس البيك، بأن طفلها ليلاً نهاراً لا يكف عن البكاء.
- أرجو المعذرة، انك ترى... مسائل لا تؤجل.
قدمت نفسي له قائلاً، بأنني أتيت إلى هنا بنصيحة الأطباء، وأنني لمحت بيته أثناء النزهة، وقررت زيارة المهندس البيك.
- أهلاً وسهلاً.. شرفت.. سأعالج المريض الآن، وبعد ذلك سنتحدث ونشرب الشاي.
ثم أشار إلى الممرضة، التي كانت تحمل قماط الطفل الباكي وقال:
- إنها زوجتي.
صافحتها وكلي شعور بالذنب لاقتحامي المفاجىء الذي أعاقهما عن مواصلة عملهما. كما أنني لم أفهم، لماذا يقوم مهندس الغابة هذا بعمل ليس من اختصاصه أبداً.
أما زوجة المهندس، فراحت تفحص الطفل، وما أن أبعدت ساقيه، حتى صرخت مرتعدة:
- يا إلهي، ما هذا!... كيف يمكنك فعل ذلك! لقد تعفن المسكين.. يا له من

جرح كبير. . وتريدين من الطفل أن لا يبكي! يجب عليك أن تغسليه وتضعي البودرة عليه. هل يعقل أنك لم تستطيعي حتى وضع التراب الجاف عليه!

أثناء ذلك، كان المهندس قد استدعى مريضاً آخر، وراح يستمع إلى شكواه بكل انتباه. نصحه بالذهاب إلى طبيب القرية، أما الفلاح فقال، بأنه كان عند ذلك الطبيب، وأعطاه نقوداً لا بأس بها، لكن بدون جدوى، لأن الدواء لا يساعده.

ـ إنه يكذب ـ قال المهندس متوجهاً بالكلام إليّ ـ لم يكن عند أي طبيب. أليس كذلك؟ ـ سأل المهندس الفلاح.

هزّ الفلاح رأسه صامتاً. أخرج المهندس من محفظته ورقة من فئة المئة ليرة وناولها للفلاح.

ـ خذ، وعندما تتعافى، عد للعمل في برج المراقبة. . . اذهب إلى الطبيب في الصباح واعرض نفسك عليه. إلى اللقاء. . أتمنى لك الشفاء. ـ ثم تابع يقول للفلاح الذي بدأ يخرج ـ سآتي إلى القرية لأتحقق من ذهابك إلى الطبيب.

شرح المهندس لي بعد ذلك:

ـ كيف يمكن لهذا المسكين أن يذهب إلى الطبيب، عندما يتوجب عليه أن يدفع لقاء كل شيء. . المعاينة، الدواء. . .

ولأكثر من ساعة، راقبت كيف كان المهندس وزوجته يستقبلان المرضى، ويعالجونهم، ويضمدونهم، ويقدمان لهم النصائح. كما أن المهندس أعطى رسالة توصية لأحد المرضى، يرجو فيها الطبيب أن يعاينه مجاناً.

أحضرت لنا زوجة المهندس الشاي. كما أنهما دعيا سائقي، الذي كان ينتظرني تحت النافذة. أما السائق، والذي كان يشتم المهندس منذ قليل، فقد دخل بسرعة وحيّا المهندس وزوجته باحترام بالغ، معبراً عن ذلك بأرقى الكلمات.

جلسنا نشرب الشاي ونتناقش.

علمت من خلال أحاديث المهندس، أنه قد بلغ السن التقاعدي منذ فترة

طويلة، بيد أنه لم يتقاعد، لعلمه، بأن الكثير من الناس هنا يتألمون، وأنه لازال باستطاعته أن يقدم لهم المساعدات. فهو لا يقدر أن يرتاح أبداً، طالما أن الناس بحاجة إليه، وطالما أنه قوي.

أما أولاده، بنتان وصبي، فيعيشون في مكان آخر. لقد حدثني المهندس عن ذلك كله بهدوء. وقد أدهشني طيبة وجهه. أخيراً، نهض المهندس واقفاً وقال:

ـ إننا نبني حالياً برجاً للمراقبة، يجب أن أذهب لأرى كيف يجري العمل هناك، ألا تريد الذهاب معي؟

فهمت، إنني أعيق المهندس وزوجته عن تأدية أعمالهما، وأنني أزعجهما وآخذ من وقتهما. لذلك، أسرعت في الانحناء مودّعاً.

ودعتني زوجة المهندس بحفاوة، ورجتني أن أمر بهما حالما أتواجد في هذا المكان.

ـ ندعوك للغداء، سنكون سعيدين.

قلت للسائق في طريق العودة:

ـ لقد قلت بأن المهندس إنسان سافل، لكنه وزوجته ملاكان حقيقيان، فما السيىء فيهما؟

ـ آه.. لو تعرف أي نوع من السفلة هما...

ـ لماذا؟

ـ قلت سافل، يعني سافل، ومن القباحة أن نتحدث عنه...

أما أنا، فلم ألحّ عليه.

في مساء اليوم التالي، وفيما كنت جالساً على كرسي صغير من القش أمام مقهى القرية، تحدثت مع صاحب المقهى، الذي كان سميري الدائم. وقد رغبت طبعاً في معرفة رأيه بمهندس الغابة.

ـ كم من الناس السيئين صادفنا في حياتنا ـ أجابني صاحب المقهى ـ لكنها المرة الأولى التي نصادف فيها إنسان قبيحاً كهذا. ببساطة، لا يوجد أسوأ منه.

ـ لماذا هو سيىء؟ سألت بفضول.
ـ دعك منه، ولا تجبرني أن أكون، نماماً.
ثم استدار ودخل إلى المقهى.
وحسبما علمت، أن مسؤولي الغابات، كانوا نادراً ما يترددون إلى غاباتهم. فقد كانوا يفضلون العيش في بيوت فاخرة إما في المدينة، أو في القرية. أما هذا الإنسان، فقد استوطن في أكثر زوايا الغابة عزلة. سألت عن المهندس لدى المختار، الذي كنت استأجر غرفة عنده.
ـ لك أن تتخيل الأعمال القذرة التي يمارسها هذا الوقح إذا كان قد انزوى في أدغال الغابة ـ أجابني المختار.
ـ لكن ما السيىء فيه؟ سألت وقد فقدت صبري.
ـ لا تسألني، إسأل الآخرين. . . إن أي إنسان سيرتجف لدى ذكر اسمه. . إسأل، وستعرف.
ما أن أسأل أي إنسان عن المهندس، حتى يجيبني مباشرة بإنه: سافل. هكذا، دونما أي تعليقات أخرى.
ثمة حرّاج كان في القرية التي كنت أسكن فيها. وقد أكد مثل الآخرين، أن المهندس: شخص سافل.
بيد أنه مثل غيره، لم يستطع شرح السبب. وقد قررت، أن أفهم سبب كراهية الجميع لهذا الإنسان.
ـ يجوز أنه يتعمد إشعال الحرائق في الغابات؟ ـ سألت الحرّاج ـ ثم يبيع المروج المحروقة للفلاحين بأسعار عالية؟
قهقه الحرّاج:
ـ من أين جئت بهذه الأفكار؟ سابقاً كانت تحدث في الغابة من ثلاثة إلى أربة حرائق في السنة. ومنذ ظهور هذا السافل، لم يحدث حريق واحد خلال أربعة أعوام.

ـ ولماذا كانت تحدث الحرائق سابقاً والآن لا تحدث؟
ـ لأن المهندس لا يخرج من الغابة ليلاً نهاراً. كما أنه لا يتحرك عن أبراج المراقبة. يعمل بشكل دائم وكأنه لا ينام. إنه ليس إنساناً بل آلة. وسابقاً، كانت في غاباتنا أربعة أبراج فقط، ولم يكن أي هاتف على واحد منها. لكن هذا، ما أن ظهر حتى بنى أكثر من سبعين برجاً على ما أظن، كما أنه وضع أجهزة الهاتف في معظمها، وكلها موصولة بجهازه المنزلي. ثم أنه حفر ممرات في الغابة لتسهيل إطفاء الحرائق إن هي حدثت لا سمح الله. . .
ـ ولماذا لم تكن الأمور هكذا سابقاً؟
ـ لأن المال لم يكن متوافراً لهذه الأشياء؟
ـ وهل يعطونه أموالاً كثيرة؟
ـ لا يا عزيزي، فالمبالغ التي في حوزته، هي نفسها التي كانت في حوزة سابقيه. لكنه كما ترى، يفلح في تدبير أموره.
ـ إذن أين تكمن سفالته؟
زفر الحرّاج بقوة وضرب على صدره وقال:
ـ على أية حال، نحن نعرف أي حيوان هو. . .
على ما يبدو، أن المهندس يسرق الغابة الحكومية. لأنه يوجد مثل هؤلاء الناس المحظوظين، الذين يعملون كثيراً للمنفعة العامة. . . لكنهم. . . يسرقون.
ثمة صديق مدرّس في قرية تبعد عن مكان سكني مسافة ساعة. وقد كان يستعد للإحالة على التقاعد. والمدرّس هذا، لم يكن مدينياً، بل من أصل ريفي. كنت ألتقي به أحياناً ونتحدث عن أمور شتى. لقد قررت أن أتوجه إليه. وهمّي الرئيسي، أن أعرف منه شيئاً ما عن المهندس.
ـ هل تعرف، بإنني تعرفت إلى مدير الغابة المحلية ـ بدأت الحديث بلا مواربة ـ وأنا أعتقد، بانه لص كبير، يسرق الغابة. . .

ـ من قال لك هذا؟ انتفض المدرّس المسنّ عن الكرسي لدهشته.
ـ لم يقل لي أحد، هكذا أظن.
ـ ولماذا تظن هكذا؟
ـ لقد سمعت، أنه أعطى أحد الفلاحين من القرية المجاورة نقوداً لأجل المحامي، إذ كانت لدى هذا الفلاح قضية مع وزارة الثروة الحراجية. كيف ذلك؟ مدير الغابة نفسه، يعطي الفلاح نقوداً، هذا الفلاح الذي سيتقاضى مع وزارة المهندس نفسه. . يبدو أن له مصلحة ما في ذلك. . .
ـ لا شيء من هذا القبيل. الفلاح محق. ولهذا أعطاه المهندس نقوداً، إذ ماذا في وسع هذا الفلاح أن يفعل، إذا كان لا يملك نقوداً لدفعها للمحامي؟
ـ لكن المهندس موظف بسيط، فمن أين له النقود؟ هل هو ثري؟
ـ نعم، ثري. . . زوجته ثرية. . وهو يوزع قسماً كبيراً من رواتبه للفلاحين الفقراء. . حتى أنه في العام الماضي، أعطانا نقوداً لإصلاح المدرسة.
ـ عجباً!
ـ ولماذا تتعجب؟
ـ لأن الكل هنا يؤكد بأنه إنسان سافل. . .
ـ في الحقيقة. . . من الواضح طبعاً. . انه سافل. . . ولن ترى إنساناً يماثله في النذالة. . .
ـ لا يسرق، ويوفق في أعماله، ويعمل بشكل رائع، ويساعد المحتاجين، فلماذا هو نذل إذاً؟
ـ وهل تستدرجني لقول الأسرار؟
ـ لا أبداً، بل أريد أن أفهم. . .
ـ أنا أقول لك، بانه نذل. . . والجميع هنا. . . ليس مهماً لماذا. . . إنه نذل وكفى.

الجميع هنا يعرف، أن المهندس من أسفل السافلين، لكن أحداً لا يشي

به . . ما هؤلاء الناس! . . . لا أحد يقول كلمة سيئة من خلف ظهره . إنه لطبع عظيم حقاً، لدى السكان المحليين هنا .

ومرة أخرى ذهبت إلى المهندس . وأثناء الطريق ، كنت أحاول استبيان أمر المهندس .

ـ يجوز أنه يتلقى الرشاوى؟ سألت السائق .

ـ سامحك الله ، لماذا تشهر به عبثاً . لا شك أنه وقح ، لكن أحداً لم ير بأنه أخذ رشوة .

ـ إذاً فهو منافق؟

ـ لا أبداً، فالنفاق ليس من شيمته .

وعندما وصلنا إلى بيت المهندس الجميل، لم يكن المهندس موجوداً، أما زوجته، فدعتني مرحبة بعمق :

ـ تفضل، تفضل، سيعود زوجي حالاً ، وسيسعد بك . لقد خرج من البيت منذ يومين لقطع الأشجار المخصصة للحطب، فالحراجون غالباً ما يخدعون الفلاحين، إذ يقطعون الأشجار الأخرى . ولهذا سافر ليشرف بنفسه على ذلك . كان عليه أن يعود صباح اليوم . . لقد حان موعد وصوله . . تفضل وارتح .

ـ شكراً، سأتنزه ساعة أخرى في الغابة، ثم أعود إليكما .

توغلت عميقاً في الغابة . وبعد فترة من الوقت، سمعت صفيراً ووقع أقدام وإشارة سيارة . صعدت إلى تلة ، ورأيت الطريق . ثمة سيارة جيب كانت تسير عليها . وبعد تجوال قصير، عدت إلى بيت المهندس ، وكان قد عاد . فقد وقف أمام بيته وإلى جانبه ثلاثة حراجين وفلاحان . أحدهما مسنّ ، والآخر شاب .

ـ أهلاً وسهلاً ـ رحب بي المهندس ـ سأنهي العمل حالاً . .

ومن خلال حديث الحراجين مع المهندس فهمت ، أن الفلاحيْن قطعا شجرة دونما إذن بذلك . وعندما نقلاها على طنبر وانطلقا في الطريق ، تم إلقاء القبض عليهما بالجرم المشهود . وهنا دعتني زوجة المهندس كي أدخل إلى البيت ،

ولم أسمع نهاية الحديث. وبعد عدة دقائق، دخل المهندس:

ـ سعيد جداً برؤيتك. . حسناً فعلت، فقد أتيت في موعد الغداء.

كان من الصعب ألا أوافق، زد على ذلـك، أنني نويت معرفة المهندس بشكـل أعمق. وضعت زوجتـه الغداء على الطاولة، واتخذت وسائقي مكانينا خلفها. حدثنا المهندس عن اللصين الذين تم القبض عليهما تواً:

ـ ماذا في وسع هؤلاء المساكين غير فعل ذلك؟ لا أرض عندهم، وإن وجدت، فهي صغيرة لدرجة لن تنتج ما يسد رمقهم. لا عمل ولا وظيفة. ثم إن العمل الذي نسنده إليهم، لا يكفيهم لإعالة أسرهم. وأنا لا أقدر على السماح لهم بحرق المروج في الغابة. ما الذي سيفعلونه، هل يموتون من الجوع؟ وهم لهذا السبب يقطعون الأشجار لبيعها كحطب في المدينة. ونحن نقبض عليهم ونمسكهم من تلابيبهم. وقد أمرت الحرّاجين، بأن لا يسلموا أحداً من هؤلاء اللصوص للدرك، قبل أن أراهم بنفسي. فسجن المدينة مليء بهؤلاء «المجرمين». وإن لم تعاقبهم، فإنك لن تؤدي واجبك. وإن عاقبتهم، فإن ضميرك سيعذبك. . آه. . كم هذا صعب!

احتدم بي الفضول: تصدقوا عليّ وقولوا لي، لماذا تشتمون هذا الإنسان الفاضل؟

ركبت البـاص المتجهة إلى أقرب بلدة وكان الفضول ينهشني. ثمة فلاح جلس إلى جانبي وقد عرفته. إنه ذلك الفلاح، الذي ضمده المهندس وزوجته يوم قمت بأول زيارة لهما. تحدثت إلى الفلاح ممتدحاً المهندس.

ـ ما الجيد في هذا المهندس؟ ـ غضب الفلاح فجأة ـ إنه حقير وسافل.

ذكرته بالمساعدة الطبيّة التي قدمها له المهندس.

ـ هذا شيء، أما كونه إنسان قذر، فإنها مسألة أخرى ـ أجابني الفلاح.

وطيلة الطريق، أضجرت الفلاح بأسئلتي، بيد أنني لم أسمع منه زيادة عن كون المهندس أسفل السافلين.

ثمـة حانوتي صديق في البلدة، وهو الذي ساعدني في استئجار بيت في القرية. كان يتاجر بكل الأشياء تماماً: من أجهزة الراديو إلى أجهزة التلفزيون إلى صباغ الشعر والأحذية إلى الكتب والمحركات.

سألته مباشرة عن سبب عدم رضاهم عن المهندس، ولماذا يعتبرونه إنساناً سافلاً.

ـ إذا كانوا هكذا يعتبرونه، فهذا يعني أنه كذلك!

ـ لكن لماذا هو سيىء؟

ـ لأنه سيىء...

أفكار شتى راحت تنتابني. يجوز أن المهندس يقوم بمغامرات مع النساء، وأنه يخون زوجته؟

اعترض الحانوتي فوراً:

ـ على حد علمنا هو زوج مستقيم وشريف.

وكما قلت، أن أفكاراً شتى كانت تنتابني. لا شك أن المهندس ليس شاباً، لكن من يدري، لعله إنسان شاذ؟

ـ ما هذا الهراء؟ ـ انزعج الحانوتي ـ ومن باستطاعته قول ذلك؟

وأنا ما أنعت المهندس بعيب ما، حتى يقوم الحانوتي بالدفاع عنه. فقدت صبري وسألت:

ـ إذا كنتم تعتبرون المهندس إنساناً سافلاً ومنحطاً، فلماذا لا ترفعون قضية ضده لدى الوزارة؟

ـ ومن قال لك أننا لم نفعل ذلك؟ تعال معي..

أخذني الحانوتي إلى مكتب محامي المنطقة.

ـ هذا السيد تهمـه معـرفـة لماذا لا نشتكي مهندس الغابة، ذلك السافل، أره عرائضنا وشكاوانا.

أخرج المحامي مصنفاً ضخماً وقال:

ـ تفضل وانظر.

بدأت أقرأ الوثائق في المصنف. ثمة شكاوى شخصية ومن منظمات ومجالس ومكاتب البلديات. وقد تضمنت جميعها طلباً بنقل مهندس الغابة إلى مكان آخر. وكل هذه العرائض وجهت إلى وزارة الثروة الحراجية. حتى أن بعضاً منها كان موجهاً إلى رئيس مجلس الوزراء ذاته، بالإضافة إلى نسخ من برقيات.

سألت مندهشاً:

ـ ولماذا لا ينقلونه من هنا بعد كل هذه الشكاوى؟

ـ كما ترى، لا ينقلوه ـ أجابني المحامي.

سألت:

ـ وماذا فعل هذا المهندس؟

ـ لقد فعل الكثير من الرذائل ـ أجاب المحامي ـ ومن الصعب ذكر واحدة منها...

أخيراً فقدت الأمل في فهم ما يجري. مفهوم أن المهندس من أسفل السافلين، لكن لماذا؟ وهكذا لم أرض فضولي.

غالباً ما كنت أتواجد عند المهندس. وكلما تعرفت إليه عن قرب، كلما ازداد إعجابي به. كان بيته مليئاً بالكتب، وكان يقرأ كثيراً. ولذلك كان الحديث معه أمراً ممتعاً ونافعاً. لقد ساعد الجميع حسب استطاعته، ولم ينتظر الشكر من أحد.

وفيما كنت أفكر كيف يسبّه الناس هنا وصلت إلى قناعة مفادها: أن أعمال الخير لا تنفع شعبنا.

وذات مرة، لم أطق صبراً، فقلت للمهندس:

ـ الكل هنا يقول بأنك إنسان سيىء، ولم أر إنساناً واحداً يمتدحك، أما أنت فتفعل الخير الكثير لهم.

ابتسم وقال:

ـ نعم، سمعت أنهم يسبّوني.

ـ لكن لماذا؟
ـ إسألهم.
ـ إنهم لا يقدرون عمل الخير، إنهم أناس جاحدون.
ـ لا، لا، ليس هكذا أبداً ـ اعترض المهندس.

حان يوم رحيلي من القرية. وأثناء الوداع، أعطيت المختار الذي عشت في بيته، مجموعة من الهدايا، ومرة أخرى لم أحتمل فسألته:

ـ اسمع يا مختار، ها أنذا سأرحل، لكنني أرجوك، قل لي أخيراً، لماذا المهندس إنسان سيىء؟

أجاب المختار:

ـ هو لم يسىء لي شخصياً، لكن الكل هنا يؤكد بأنه إنسان سيىء، وهل باستطاعتي إلا أن أصدق الشعب...

هكذا تهرب المختار من الإجابة. ذهبت إلى المدرّس كي أودعه، ولم أحصل منه على جواب بصدد المهندس.

غادرت القرية إلى مركز المنطقة. بقيت ساعتان لانطلاق الباص المتجه إلى استامبول. احترت كيف سأقضي هاتين الساعتين، فوجدتني أتجه إلى مكتب ذلك المحامي:

ـ سأرحل، وقد أتيت كي أودعك.

سُرَّ المحامي لمجيئي، أما أنا فتابعت:

ـ اسمع، أكاد أموت من الفضول، قل لي لأجل الله، لماذا المهندس إنسان سيىء؟ صدقني لن أقول لأحد.

وثق المحامي بي وقال:

ـ حسناً، أنا واثق بأنك لست ثرثاراً. ثمة موظفون سيئون وجيدون يصلون إلينا كما إلى الأماكن الآخرى...
ـ طبعاً ـ أكدت كلام المحامي.

ـ وعندما يصل موظف سيىء جداً، لا يطيق الناس صبراً، فيبدؤون بإرسال شكاوهيم.
ـ طبعاً ـ تدخلت في الحديث.
ـ وكلما كثرت شكاوى الناس، كلما احتفظ المسؤولون أكثر بهذا الموظف في منصبه. ونحن غالباً ما يصل إلينا موظفون سيئون. وعندما يمنّ الدهر علينا بموظف جيد، ويكون الناس راضين عنه، ويبدؤون بالحديث ممتدحين إياه أينما كان، فإنهم سرعان ما ينقلونه إلى مكان آخر. والموظفون الجيدون كما هو معروف، لا يظلون طويلاً في مناصبهم. ومهما طالب الناس بهم، وكتبوا عرائض لأجل استعادتهم، فكل ذلك لن يفيد في شيء. ونحن أدركنا ذلك جيداً من خلال تجاربنا الخاصة. والآن، وما أن يظهر موظف جيد، حتى نبدأ بشتمه بأقذر ما يوجد من كلمات. والكل على سبيل المثال، من صغيرنا إلى كبيرنا، يشتم مهندس الغابة. حتى أننا من وقت لآخر، نرسل عرائض ليبعدوا عنا هذا السافل. ونجمع مئة توقيع، وأحياناً ألف توقيع. وبهذا الشكل تمكنا من إبقائه عندنا أربعة أعوام. لو أننا نوفق في إبقائه أربعة أعوام أخرى أيضاً! جرّب واسأل الناس عن المحافظ، وستسمع ما يقولونه لك.

الآن فهمت اللغز. لكن لماذا تُبقي الحكومة الموظفين السيئين في مناصبهم وتقيل الجيدين؟

شرح المحامي:

ـ لأن الحزب الحاكم حصل على أصوات قليلة جداً في منطقتنا، ولذلك، قررت الحكومة أن تعاقبنا.
ـ الكل يجتهد في شتم المهندس، لكن ألا يوجد بينكم من يؤيد الحزب الحاكم؟
ـ يوجد، أنا شخصياً عضو في الحزب الحاكم، لكننا نتفق في الرأي بصدد الموظفين الجيدين، ولهذا نصيح بصوت واحد، ونعيرهم بما ليس فيهم كي نحافظ عليهم عندنا.

وفيما كنت أودع المحامي قال لي مذكراً:

- من الضروري أن تسأل الناس عن رأيهم بالمحافظ.

وعلى موقف الباص «الذي تأخر» سألت عشرين شخصاً على الأقل، عن رأيهم بالمحافظ. وكلهم مجدوا خدمات المحافظ حتى السماء.

لكن شخصاً واحداً كان يجلس إلى جانبي في الباص، وهو موظف في إدارة المحافظة، أدهشني جداً، إذ أنه اعترض بشكل قطعي وقال:

- المحافظ، سافل وابن سافلة!

- غير معقول فالكل يمتدحه ما عداك.

- طبعاً، لأنهم لا يعرفون بأن المحافظ سينقل إلى مكان آخر... فالقرار بذلك تم صباح اليوم فقط. ولذلك، إسأل الجميع عندما سيعلمون من الصحف عن المحافظ الجديد.

«ينقصنا شيء ما»

للأسف الشديد، إن أحداً لا يشك، بأن اهتمام القارىء بالمقالات الجدّية قد انعدم في الآونة الأخيرة. ونحن في مقالاتنا الافتتاحية، نفعل مع ذلك، كل ما في وسعنا من أجل حلّ أهم المسائل في بلدنا. قبل كل شيء، ينبغي علينا أن نحدد، ما هو ضروري لتحقيق النهوض الثقافي والاقتصادي في بلدنا.

طبعاً، ينقصنا شيء ما. وبما أنه مادام ينقصنا شيء ما، فإنه لا فائدة ترجى، كما أن الفوضى ستستمر في البلد.

إن أي عضو في الحزب الحاكم في بلدنا، أو أي معارض، يعي تماماً، أن شيئاً ما ينقصنا. والخلافات تشتد هنا لا بسبب فهم أن شيئاً ما ينقصنا، بل بسبب الفهم المختلف لما ينقصنا بالذات. بيد أننا الآن، ونحن متفقون في الرأي، بأن شيئاً ما ينقصنا، فإنه سيكون من السهل علينا تحديد ما ينقصنا بالذات.

وهذا يترك لدينا إحساساً عميقاً بالرضى. «هل هذا مفهوم للجميع؟ عظيم؟».

كم هو رائع الإحساس بالوحدة الوطنية والتضامن، خاصة عندما يكون اليمينيون واليساريون وأنصار التقدم، والرجعيون، والمثقفون، والناس البسطاء، متحدين في الرأي، بأن شيئاً ما ينقصنا.

ليس هناك مجال للشك، أنه مهما يكن حجم ذلك الذي ينقصنا، بعد أن يتضح لنا ما ينقصنا بالذات، فإن الأمور ستكون على ما يرام في بلدنا.

الكل يعرف، بأن كل إنسان بنقصه شيء ما خاص به، تماماً كما ينقص كل مجتمع. وهذه الحقيقة تحافظ على قوتها ليس في علاقات مجتمعنا الحاضرة، بل في علاقات تلك المجتمعات، التي وجدت عندنا سابقاً. وهنا نصل إلى نتيجة، وهي

أن شيئاً ما كان ينقصنا على مدى تاريخنا كله.

ثمة من يسأل: ما الذي ينقصنا بالذات؟

وهنا باستطاعتنا أن نجيب بكل جرأة، أننا عندما نكون قادرين على حل هذه المسألة، أي أن نجيب على السؤال الآنف الذكر، فإن كل قضايانا الأخرى ستحل.

وبما أن كل واحد منا ينقصه شيء ما، فإنه علينا أن نلقي جانباً كل خلافاتنا، وأن نفكر عميقاً بالشيء الذي ينقصنا بالذات.

قرائي المحترمين، هل قرأتم في حياتكم، «شيئاً ما شبيهاً بذلك؟».

«هكذا انتحرت»

الكتـابة عن حوادث الانتحار، غير مسموح بها عندنا في الجرائد. لكن الحديث هنا يجري عني أنا. ولهذا أرجو من السلطات الرسمية، المشهورة بوجهات نظرها الجدّية المتطرفة، أن تكون سعيدة لدى سماعها قصة انتحار إنسان تافه مثلي.

منذ مدة أصبت بهوس الانتحار. وقد استقرت في رأسي فكرة عنيدة: «هيا، اسرع إلى العالم الآخر».

ولأول مرة في حياتي أتجاسر قائلاً لنفسي: «أيه... أنت، أيها المعذب، أية طريقة تختار لنفسك؟ بالمسدس؟ بالخنجر؟ اختر!».

الموت هو الموت. أما أنا فمن المعجبين بالطرق الكلاسيكية. لذلك قررت أن أنتحر بالسم.

اشـتريت سماً قاتـلاً، حبست نفسي في الغـرفـة ثم كتبت بسرعة رسالة رومـانسية طويلة، اختتمتهـا بالكلمات التـالية: «وداعـاً للحياة القلقة، وداعاً للمصـير الخـائن، وداعـاً لكم جميعـاً..» بعـد ذلك تجرعت كأساً من السم، واضطجعت على الأرض منتظراً تشنج يديّ وساقيّ وتورم عروقي وتحلل دمي. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. عندئذ تجرعت كأساً ثانياً وثالثاً... لكن بدون أية نتيجة. على ما يبدو، أنهم في بلدنا لا يخلطون الحليب بالماء، والزيت بالشوائب، أو يضعـون الجبن الفاسد فحسب، بل حتى السم يغشونه. ترى، هل يعقل ذلك؟! حتى الانتحار بطريقة مهذبة غير مسموح به!؟

أنا واحد من أولئك الذين إذا بدؤوا بعمل يسيرون به حتى النهاية. لذا قررت الآن أن أطلق النار على نفسي. حصلت على بندقية ووضعت فوهتها على

سالفي وضغطت على الزناد و: باف. . ف. . ف. . ف

ضغطت مرة ثانية و: بوف. . ف. . ف. . ف. .

ومرة ثالثة: بيف. . ف. . ف. . ف. . .

لقد تبين أن البندقية، هي واحدة من تلك الأسلحة، التي نحصل عليها كمساعدات عسكرية من أمريكا، إذ كان ينقصها شيء ما.

إذاّك، قررت أن أموت موتاً محتماً، وذلك عن طريق الاختناق بالغاز. يقال، ان الموت بالغاز يعدّ شاعرياً للغاية.

فتحت صمامات أنبوب الغاز حتى النهاية، وسددت كل ثقوب الغرفة كي لا يتهرب الغاز منها، ثم ارتميت على الكرسي منتظراً ملاك الموت ـ عزرائيل.

انتصف النهار. غابت الشمس، وأنا لا أقدر على طرد روحي من جسدي. وفي المساء أتاني أحد الأصدقاء.

صرخت به: إياك والدخول!

ـ ما بك؟

ـ إنني أموت.

ـ إنك لا تموت، بل تفقد عقلك.

وعندما حدثت صديقي عن مشروع الانتحار قهقه قائلاً: يا لك من مغفل!. . ألا تعرف أن أنابيب الغاز عندنا غير مليئة بالغاز وإنما بالهواء الطبيعي. . لكن قل لي، هل حقاً تريد أن تنتحر؟

ـ طبعاً.

ـ سأقدم لك خدمة أخوية. إليك نصيحتي: اشترِ خنجراً واطعن به أحشاءَك بسرعة كساموراي شجاع.

شكرت صديقي على نصيحته الأخوية، ثم هرعت إلى الشارع واشتريت خنجراً عملاقاً. في الحقيقة، لم أك تواقاً للموت بإخراج أحشائي من مكانها، لأنني كنت أخجل من الأطباء، الذين لن يعثروا في معدتي على أي أثر للطعام، عندما

سيشرحون جثتي. هكذا كنت أفكر عندما اقتربت من البيت. وهنا، لا أدري من أين هبط شرطيان فوق رأسي.

صرخت: أيها السيدان، اسمعاني أولاً. . . أنا أدفع الضرائب بانتظام، ثم إنني لا أنتقد الحكومة أبداً. . . ولن تروا إنساناً شريفاً مثلـ . . . .

قاطعني أحدهما وهو يخرج الخنجر من جيبي: وما هذا؟

لقد بوغِتُّ تماماً كما يحصل للمجرمين عندنا. صرخت في أعماقي: «يا إلهي. . . ما هذا. . . حتى الموت غير مسموح به. . . وهل يمكن العيش بعد هذا كله؟!» أنا إنسان قوي الإرادة. وإن عزمت على فعل شيء، فإنني سأفعله لا محالة. اشتريت حبلاً غليظاً وقطعة صابون. ربطت طرف الحبل بسقف الغرفة، وجعلت من الطرف الثاني العقدة. دهنتها جيداً بالصابون وأدخلت رأسي بها وأنا أتذكر دائرة الضرائب. ركلت الكرسي برجلي و. . . وجدت نفسي مرمياً على الأرض. على ما يبدو، أن الحبل كان بالياً. . . ذهبت أشتكي للبائع، أما هو فأجابني: لو كان ذلك الحبل صالحاً للاستعمال، فهل يعقل أن أبيعك إياه؟

فهمت الآن، أن الموت غير مكتوب على جبيني.

ـ حسن. . . سأعيش إذاً. . .

كما هو معروف، أن الحياة تبدأ بملء البطون. وأنا أعشق البيض المقلي مع المرتديلا. دخلت إلى المطعم وأكلت البيض المقلي مع المرتديلا، ويبرقاً معلباً، وصحناً من المعكرونة.

خرجت من المطعم مترنحاً ثم دخلت محلاً لبيع الحلويات، وهناك التهمت أربع قطع من الكاتو. تقدم بائع الجرائد من طاولتي وهو يصرخ: ست عشرة صفحة، ست عشرة صفحة، لن تقرأها بالتأكيد. . . أصنع منها أكياساً. .

أنا عادة لا أشتري الصحف شبه الرسمية، لكنني اليوم سأشذ عن القاعدة. وما أن بدأت بقراءة الافتتاحية حتى نمت. ايقظني ألم حاد في معدتي، كما لو أن أحداً طعنني بخنجر ملتهب. لم أحتمل الألم. رحت أزعق كالمذبوح.

نقلت بسيارة الإسعاف إلى المستشفى. وفي الطريق أغمي عليّ. وعندما عدت إلى رشدي، وجدت الطبيب يقف بجانب سريري وهو يسألني: هل سممت؟ على المريض أن يكون صريحاً مد طبيبه، اعترف، هل حاولت الانتحار؟

- آخ يا دكتور... لا للأسف.

- هناك تسمم، ماذا أكلت؟

- مرتديلا...

- أكلت مرتديلا؟!... أحمق... إقرأ الجرائد.. فالمستشفيات مليئة بالمسممين بالمرتديلا... لكن تسممك من نوع آخر.. ما الذي أكلته أيضاً؟

- ذهبت إلى المطعم...

- إلى المطعم؟! هل جننت؟!

- أكلت يبرقاً معلباً...

- يا حبيبي! يا حبيبي!.. وماذا أيضاً؟

- معكرونة وأربع قطع كاتو...

- طبعاً تسممت... يبرق معلب... معكرونة... كاتو... وماذا بعد؟

- أقسم لك لا شيء بعد... ثم قرأت الصحيفة شبه الرسمية...

زعق الطبيب: ماذا؟! قرأت الصحيفة شبه الرسمية؟! احمد ربك لأنك لازلت حيّاً... لقد نجوت بأعجوبة.

وعندما خرجت من المستشفى رحت أفكر: «لا بأس... ما الذي علينا فعله، فهم لا يسمحون لنا بالعيش ولا حتى بالموت، يسمحون لنا بالبقاء فقط».

«إذا . . . .»

صديقي العزيز، بحري فلفل!

أشكرك جداً على رسالتك. آمل، إذا لم تَضِع رسالتي لك في البريد. وإذا مرت عبر الرقابة بسلام. وإذا لم يخطىء ساعي البريد في قراءة عنوانك. وإذا لم يرهنوا البيت الذي تسكن فيه، أو إذا لم يطردكم صاحب هذا البيت، فإنك ستتسلم ردي!...

حبيبي، بحري فلفل!

تسألني متى سأتزوج. إذا وجدتْ خطيبتي عملاً لها. وإذا كفّ سيدها عن إزعاجها ولم يطردها لعدم تنازلها. وإذا وجدنا شقة تتناسب مع راتبينا. وإذا استطعنا شراء أثاث ما للبيت. وإذا ازداد راتبي بفضل الازدهار الإقتصادي، الذي يعدنا به رئيس مجلس الوزراء. وإذا تحقق نهوض المستوى الحياتي، الذي يتحدثون عنه طيلة الوقت كما أذكر. وإذا لم ينفد صبر خطيبتي، التي لازالت تنتظرني عشر سنوات. وإذا لم يضعوني تحت المراقبة، أو إذا لم أُعتقل أو أُطرد من العمل، فإنني سأتزوج قريباً جداً.

حبيبي، بحري فلفل!

تسألني عن صحة العمة صوفيا خانم. إذا استطاعت إيجاد الدواء، الذي وصفه لها الطبيب رقم (٧). وإذا وجدوا لها مكاناً في المستشفى. وإذا أجروا لها العملية. وإذا بقيت حيّة بعد هذه العملية. وإذا وجدت العملة الصعبة للسفر إلى أوروبا للمعالجة النهائية. وإذا لم تغرق السفينة التي ستبحر عليها أو لم تحترق أو تجنح إلى بلد آخر. وإذا لم يصادروا السفينة عندنا بسبب الديون الخارجية. وإذا لم تعتلْ صحة عمتي بعد التفتيش الجمركي. وإذا لم تُعتقل بسبب التهريب،

وذلك عندما سيجدون بحوزتها ربطة عنق هدية لزوجها. وإذا استطاعت تحمل ذلك وبقيت حيّة، فإن صحتها ستتحسن قريباً بعون الله!...

أخي، بحري فلفل!

تسألني عن وضع فريقنا بكرة القدم في هذا الموسم. إذا تضاءل حجم مرمى فريقنا أثناء المباريات. وإذا لم تنعكس الشمس في أعين لاعبينا. وإذا كانت الرياح مؤاتية. وإذا كان الحكم عادلاً، أي أن ينحاز إلى جانب فريقنا. وإذا استطاع جمهورنا بصراخه أن يقضي على الروح النضالية لخصمنا، والأفضل أن يرموا عليه أكواز الصنوبر، وسيقان الملفوف، والقناني الفارغة، وأن يجرحوا أحد لاعبي الخصم. وإذا ذهب فريقنا للصلاة في الأماكن المقدسة قبل كل مباراة، ليستلهم المزيد من القوة، فعندها سيكون فريقنا بطل العالم لا محالة.

سألتني عن أحوالنا. إذا لم تتعطل الهواتف بعد المطر. وإذا لم يقطعوا الكهرباء والغاز عنا بسبب المطر. وإذا لم ينقطع البث الإذاعي بسبب المطر. وإذا لم تنفجر أنابيب المياه بسبب المطر. وإذا لم تحدث أزمة مواصلات بسبب المطر. وإذا لم ترتفع أسعار الخبز بسبب المطر، فإننا سننعم بالرفاهية التامة.

تسألني عن أحوال عمي. إذا سافر عمي إلى أنقرة ووصل بسلام. وإذا استخدم وسائل الرشوة والمحسوبيات وغيرها من الوسائل السرّية، فإنه سيدفع بعمله إلى الأمام. وإذا تكرم زميل عمي في الدراسة وأعطاه رسالة توصية. وإذا حصل عمي على ترخيص وقرض من المصرف، وإذا فتح تجارته ولم يفقد عقله بعد ذلك كله، فإن أحواله ستكون على ما يرام في المستقبل القريب.

عزيزي، بحري فلفل!

تسألني عن دراسة ابني جنكيز. إذا لم يتجاوز عدد التلاميذ في الصف الواحد تسعين تلميذاً كما في السنة الماضية. وإذا لم تتوزع الدراسة على ثلاث وجبات يومياً. وإذا لم يتوقف إعطاء الدروس بسبب نقص المعلمين. وإذا لم يغلقوا المدرسة نهائياً لهذا السبب. وإذا سمحوا بإعادة تقديم الامتحانات. أو إذا بدؤوا

بترفيع ذوي العلامات الضعيفة، أو إذا سمحت وزارة التربية بتقديم تسهيلات جديدة للانتقال من صف إلى آخر، فعند ذلك، ستكون دراسة ابني على أفضل ما يرام.

أخي، بحري فلفل!

تمكنت من معرفة ما طلبته مني، فقد أجابوني: إذا أصبح الصلعاء متجعدي الشعر، وإذا بدأت الجواميس تنسج أعشاشها على أغصان شجر الصفصاف، وإذا صار الزنوج بيضاً، وإذا تمرغت الشمس بالوحل، وإذا صارت القطط تغسل الثياب، وإذا تمكن الناس من الصعود إلى السماء على السلالم، وإذا صفّر سرطان النهر على قمة الجبل، فإن ما طلبته مني سيتحقق آنذاك.

أخي وعزيزي، بحري فلفل!

إنني أنتظر جوابك بفارغ الصبر. قبلاتي لك.

«القهوة والديمقراطية»

KMH

ثمة شيئان لا ننتجهما في بلدنا: القهوة، والديمقراطية. فنحن نستوردهما من الخارج. ماذا بوسعنا أن نفعل؟ فالقهوة لا تنبت عندنا، إذ لا شيء يناسبها هنا، لا المناخ، ولا الماء، ولا التربة. لذلك، تركناها وشأنها.

أما فيما يتعلق بالديمقراطية، فنحن نحرث الأرض بأنوفنا كي تنبت عندنا. تقول كتب التاريخ: «أنه منذ مئة عام تقريباً، رميت بذور الديمقراطية في تربتنا، ومنذ ذلك الوقت لا شغل لنا سوى الصراخ: براعم ديمقراطيتنا!... ديمقراطيتنا الفتيّة!...».

إذاً، فنحن ننبتها، نفعل كل ما في وسعنا، أما هي، فلا تعطي سوى البراعم.

آه، لو أننا نوجه كل قوانا في سبيل القهوة لكان بلدنا الآن كله أدغال قهوة. كان ينبغي علينا أن نفكر بشكل أفضل.. لكننا اتجهنا لزراعة الديمقراطية. هي ذي النتيجة... ما لنا ولهذه الديمقراطية! هل كانت حالنا سيئة بدونها؟ لكن عش بدون قهوة إن استطعت!... إذ ليس بإمكانك أن تستعيض عنها بشيء آخر. فرأسك ستدور إن لم تشرب فنجاناً واحداً. والديمقراطية؟ كانت أم لم تكن، فالأمر سيان.. ورأسك لن تدور.

القهوة تعرف فوراً من رائحتها. فأنت تغليها، تشربها.. لكن الديمقراطية لا تؤكل ولا تشرب.

وقد سأل سائل: لماذا هي ضرورية لنا هذه الديمقراطية؟ فهي متوافرة عندنا بكثرة ومجاناً... ولا يحتاج شراؤها للعملة الصعبة، فهي تتسلل إلينا عبر كل الشقوق. لكن أين القهوة؟ إنها غير موجودة، والحصول عليها يحتاج إلى نقود.

لكن السيىء في الأمر، هو أننا اعتدنا على القهوة. والعيش بدونها مصيبة ويمكننا القول، أننا اختصاصيون عظماء في القهوة. ولو سألت أياً منا: أي القهوة رديء، وأيها جيد، وأيها طازج، وأيها بائت، وأيها مغشوش، وأيها نقي، فإنه سيحددها لك في الحال.

ثمة محسنون، راحوا يدسون لنا قهوة اصطناعية. ففي البداية اخترعوا قهوة من الشعير، فلم تنفع. ثم من الحمّص، ومرة أخرى لم تنفع... والآن يريدون أن يسقونا قهوة من بذور الفاصولياء. أما نحن فنقول لهم: لا... شكراً، إذا كنا لا نفقه في أمور أخرى، فإننا في القهوة نفقه!... سنبتلع كل شيء، أما القهوة الاصطناعية ـ فلا أبداً. لو أننا نفقه في الديمقراطية كما في القهوة لكنا آنذاك.....

لماذا نحن بلد ضعيف النمو؟

تبرع الأمـريكي فونـد دجـارتا، المشتهر بأعمال البر والإحسان، بإرسال مجموعة من العلماء الأمريكيين الاقتصاديين المشهورين إلى الدول المتأخرة، بهدف إجـراء بحـوث لشرح مسـألة، لماذا بقيت هذه الدول متأخرة. وقد أطلقوا على رحلتهم في البداية اسم «بعثة لدراسة الدول المتخلفة».

لكنهم أخـذوا بعين الاعتبار، أن كلمة «متخلفة» قد تبدو بمثابة إهانة. وبمقتضى الأعـراف الرسمية الدولية، ولكي ينالوا عطف شعوب هذه البلدان المتأخرة، قرروا استبدال كلمة «متخلفة» بمصطلح «ضعيفة النمو».

وبتكليف من فوند دجارتا، توجه إلى تركيا البروفيسور في علم الاقتصاد، المستر تشارلز أويتي.

ولتسهيل مهمتـه، تم الاتفـاق بشكل مسبق، حول مع من سيلتقي في تركيا، ليحصل منه على المعلومات اللازمة. وقد كان على المستر تشارلز أويتي قبل كل شيء، أن يتحدث مع الباي صدقي، أحد أهم الضليعين في هذه المسألة.

وبعد شهرين، أو ثلاثة أشهر، عاد الخبراء والأساتذة الاختصاصيون إلى أمريكا من تلك البلدان، ضعيفة النمو، بعد أن أتموا عملهم فيها بتكليف من فوند دجارتا، ما عدا البروفيسور تشارلز أويتي، الذي بقي في تركيا. فضلاً عن ذلك، لم تُعرف عنه أية أخبار.

وقـد قلق فوند دجارتا على صحته، وكتب رسالة إلى السلطات الرسمية التركية، وتمكن من الحصول على عنوانه. وفي السادس والعشرين من نيسان، كتب له رسالة، سرعان ما أجابه عليها تشارلز أويتي. بعد ذلك، وجه فوند دجارتا رسالة ثانية، والتي رد عليها تشارلز أويتي فوراً. وهكذا تمت المراسلة فيما بينهما.

هذه المراسلة، التي ستطبع في المستقبل القريب في ثلاثة مجلدات. ويؤكدون، أن الحظ يمكن أن يحالف هذه المجلدات الثلاثة، لتصبح الكتاب الأكثر رواجاً ليس في أمريكا فحسب، بل وفي العالم كله. وصديقي الامريكي، ناشر هذا الكتاب، رغب في معرفة رأيي بهذه المسألة، وأرسل لي المخطوط. وأنا بدوري رأيت، أنه من المفيد نشر بعض هذه الرسائل. أوجه عنايتكم إليها:

٢٤/نيسان/١٩٥٨.

عزيزي، المستر تشارلز أويتي..

لقد عاد كل أعضاء اللجنة المختصة بدراسة البلدان ضعيفة النمو إلى الوطن، باستثنائك. إننا قلقون بسبب انقطاع أخبارك لمدة أربعة أشهر. بانتظار ردك. مع احترامنا.

* * *

٢٨/نيسان/١٩٥٨

سادتي!

أشكركم على رسالتكم، المحررة في الرابع والعشرين من نيسان. إنني منزعج جداً لعدم استطاعتي إخباركم بأي شيء حتى هذه اللحظة. فبسبب الأعياد، لم أستطع طيلة هذه الأشهر الأربعة، أن ألتقي بالشخصيات التي تمتلك المعلومات الضرورية.

وبما أنني لا أملك الحق في العودة إلى الوطن، دون أن أقوم بالمهمة الموكلة إليّ من قبل فوند دجارتا لذلك، بقيت في تركيا حتى هذا اليوم. آمل أن أستطيع اللقاء بالباي صدقي وزملائه في أقرب وقت.

* * *

١/أيار/١٩٥٨.

تشارلز أويتي!

نأمل، أن نكون قد فهمناك جيداً، مفترضين بذلك، أنك تمزح. فيما أنه لا يوجد بلد في العالم كله، يمكن أن تستمر الأعياد فيه لمدة أربعة أشهر، لذا، نأمل أن تلتقي بالباي صدقي وزملائه في شهر أيار. عُدْ إلينا فور إنهائك للبحث، حاملاً تقريرك، الذي يوضح مسألة، لماذا بقيت تركيا، بلداً ضعيف النمو.

المخلصون لك....

* * *

٥/أيار/١٩٥٨

سادتي المحترمين!

في الأول من أيار، حين كتبتم رسالتكم، تابعت البحث عن الباي صدقي. لكن، وبما أن الأول من أيار، هو عيد الربيع في تركيا، لذلك، كانت مقابلته مستحيلة. لكنني مازلت أبذل قصارى جهدي لأحصل على ما أريد. آمل أن أتمكن من مقابلته في يوم لا يكون عيداً. كما أنني لم أكتب إليكم في رسالتي السابقة، أن الأعياد هنا تستمر أربعة أشهر. كل ما أخبرتكم به، هو أنني لم أستطع مقابلة الباي صدقي طيلة أربعة أشهر بسبب الأعياد. أرجوكم كل الرجاء، أن تعيروا انتباهكم إلى الفرق ما بين الصيغتين. وأنا لم أفقد الأمل، وأظن، أنني سأتمكن من اللقاء بالباي صدقي وزملائه.

المخلص لكم، تشارلز أويتي.

* * *

١٨/أيار/١٩٥٨

عزيزي، تشارلز أويتي!

إن إخبارك إيانا عن لقائك الحتمي بالباي صدقي يوم السادس من أيار، أسعدنا بصورة خارقة. لكن أملنا خاب مرة ثانية، لعدم تسلمنا منك، أخباراً لاحقة حتى ذلك اليوم. ننتظر ردك بفارغ الصبر.

فوند دجارتا.

* * *

٢/حزيران/١٩٥٨.

سادتي المحترمين!

صحيح أنني أخبرتكم بأملي باللقاء بالباي صدقي، يوم السادس من أيار. لكنني حين حضرت إليه في ذلك اليوم، علمت أنه غير موجود في مكتبه. لأن السادس من أيار في تركيا، هو عيد الرسول خضر الياس.

وكان اللقاء بأحد ما في مكان العمل، أو في البيت مستحيلاً. تركت له بطاقتي الخاصة وأخبرته، بأنني سأزوره يوم الخامس عشر من أيار. لكن الباي صدقي، اتصل بي هاتفياً وأجّل اللقاء. لأن الخامس عشر من أيار، هو يوم الشهداء الطيارين الأبطال، ويجب عليه، أن يلقي خطاباً احتفالياً في هذا اليوم. وفي صباح التاسع عشر من أيار، اتصلت هاتفياً لأحدد موعداً للقاء به. لكن، وبما أن التاسع عشر من أيار، هو عيد الرياضة والشبيبة، لذا، فقد تم تأجيل اللقاء به. صدقوني، أنني لا أزدري بالمسؤوليات الملقاة على عاتقي أبداً، كما أنني أتقفى أثر الباي صدقي، ومازلت آمل باللقاء به في شهر حزيران، في يوم لا يكون عيداً.

المخلص لكم، تشارلز أويتي.

* * *

٢٧/حزيران/١٩٥٨

عزيزي، المستر أويتي!

تسلمنا رسالتك، المتضمنة خبراً مفرحاً عن حتمية لقائك بالباي صدقي

خلال شهر حزيران. لكن، وبما أن شهر حزيران شارف على نهايته، ولم نتلق منك أية أخبار جديدة، لذا، فقد أصبنا بالاكتئاب، نحن، زملاؤك جميعاً، نرجوك رجاءً حاراً، أن تلتقي باختصاصيين آخرين في حال تعذر اللقاء بالباي صدقي نهائياً، وأن تحصل منهم على المعلومات اللازمة. بانتظار ردك.

مع فائق الاحترام.

*　*　*

١٨/تموز/١٩٥٨.

سادتي!

تأخرت في الرد عليكم، رغبة مني بإسعادكم ولو بخبر ما. أسارع في التأكيد لكم، أنني لا أضن بجهد في محاولاتي للقاء بالباي صدقي وزملائه، حتى فيما إذا كان ذلك مستحيلاً في الأيام القريبة القادمة. البارحة، عرّجت عليه مرة أخرى، لكنني للأسف، لم أستطع اللقاء به. كما لم أستطع ذلك في السابع عشر من تموز بسبب أن الرابع عشر من تموز، كان عيد الأرض، وأول أمس بدأ عيد الأضحى، والذي يستمر أربعة أيام، أي حتى العشرين من تموز. وإزعاج الباي صدقي في هذا الوقت، غير لائق. وفي الأول من تموز، كدنا نلتقي، لكن اللقاء للأسف، لم يتم. لأن الأول من تموز، هو عيد الملاحة الساحلية. لا تظنوا، أنني لا أبذل الجهود كي ألتقيه. البارحة، ذهبت إليه مرة أخرى. لكنني علمت، أن السابع عشر من تموز، هو عيد عاشوراء. لذلك، لم أحاول إزعاجه.

تقترحون عليّ، البحث عن شخصيات أخرى للحصول منها على المعلومات اللازمة، في حال انعدام الأمل نهائياً باللقاء بالباي صدقي وزملائه. في الحقيقة، خطرت لي هذه الفكرة. لكنني، مازلت أبحث عن الباي صدقي مدة ثمانية أشهر، وإذا عزفت عن اللقاء به الآن، في الوقت، الذي انتهت الأعياد فيه تقريباً - كما افترض - فإن ذلك يعني، أن كل جهودي ذهبت أدراج الرياح.

لا تنسوا، أن البحث عن شخصية أخرى جديدة للنقاش معها، قد يكلفني ثمانية أشهر أخرى. لذلك، قررت أن ألتقي بالباي صدقي مهما كلفني ذلك من ثمن، في يوم لا يكون عيداً. آمل أن أسعدكم بالأخبار السارة قبل نهاية الشهر الحالي.

تشارلز أويتي.

* * *

٢/أيلول/١٩٥٨

المستر تشارلز أويتي!

انتهى تموز وآب، ونحن مازلنا كالسابق، لا نتلقى منك أية أخبار. بانتظار رسالتك.

* * *

١٠/أيلول/١٩٥٨

أعزائي اللطفاء.

أخبركم بايجاز، عما قمت به من عمل خلال الشهرين الماضيين. سبق وأخبرتكم في رسالتي السابقة، أنني توجهت إلى الباي صدقي في الثالث والعشرين من تموز. لكن، وبما أن الثالث والعشرين من تموز، توافق مع العيد السنوي لإعلان الدستور الأول، لذلك، لم أتمكن من ايجاده في مكتبه حتى فترة الغداء. ولكي لا أضيع الوقت سدى، اتصلت به هاتفياً بعد الغداء. وفي الرابع والعشرين من تموز، يحتفل هنا بيوم «لوزان»[1]. وقد أخبروني، أنه سافر لإقامة الاحتفالات. لكنني لم أفقد الأمل في اللقاء به، قررت، أنه من الأفضل أن أذهب إلى بيته. وفي الأسبوع الأول من آب، ذهبت إلى بيته مساءً. وهناك قيل لي، أنه

(١) ٢٤ تموز عام ١٩٢٤، تم توقيع معاهدة سلم في مدينة لوزان بسويسرا، بين تركيا ودول حلف اطلنطا.

ذهب إلى حفلة «الفستق» إذ أنهم يزرعون الفستق في بلد الباي صدقي، وهم يحتفلون بهذا الفستق، مرة في السنة. ولذلك، لم نستطع أن نلتقي. وفي اليوم التالي، احتفل بعيد ميلاد زوجة الباي صدقي. لم أيأس، وبعد ثلاثة أيام، حضرت، لكننا لم نستطع أن نتحادث في ذلك اليوم، لأن الباي صدقي أسرع في الذهاب إلى المسجد، حيث تم هناك، تلاوة القرآن على روح المرحوم أبيه. وحل الثلاثون من آب[2]، وهو عيد النصر. طبيعي، أنني لم أجده في مكتبه. البارحة، ذهبت إليه مرة أخرى، لكنني أُخبرت، أنه سافر للاحتفال بتحرير مدينة إزمير، والذي يصادف التاسع من أيلول. وعندما سيعود، سأحصل على موعد معه. صدقوني، أنه لا يمر يوم واحد، إلا وأتقفى أثره. مع فائق احترامي.

تشارلز أويتي.

* * *

٨/تشرين الأول/١٩٥٨

مستر أويتي.

لقد قرر فوند دجارتا، التخلي عن دراسة سبب ضعف نمو البلد، الذي أنت فيه الآن. نشكرك على محاولتك الجاهدة. نرجوا أن تعود إلى الوطن، لتبدأ بممارسة واجباتك الاعتيادية.

فوند دجارتا.

* * *

٦/تشرين الثاني/١٩٥٨

أعزائي اللطفاء.

فهمت من رسالتكم الأخيرة، أن فوند دجارتا، توقف عن تمويل البحوث في هذا البلد. ولكي لا تذهب جهودي خلال عام بأكمله مهب الرياح، لذا، قررت

(٢) عام ١٩٢٢، انتصر الاتراك تحت قيادة مصطفى كمال على المعتدين اليونان.

أن أتابع البحث على نفقتي الخاصة، وأن أناضل حتى آخر نقطة في دمي، لأجل اللقاء بالباي صدقي وزملائه. والقضية تكمن في، أنني شخصياً، أصبحت مهتماً وبصورة خارقة، بالإجابة على سؤال، لماذا هذا البلد، ضعيف النمو. ويجب عليّ أن أوضح ذلك مهما كانت الصعوبات.

اسمحوا لي بغض النظر عن رسالتكم الأخيرة، أن أقدم لكم تقريراً، عما قمت به، علماً أنني لم أجلس هنا مكتوف الأيدي طيلة هذه الأشهر. وبغض النظر، عن أنني لم أستطع رؤية الباي صدقي في الخامس عشر من أيلول، لأنهم كانوا يحتفلون بيوم «بربروس»(٣) مع ذلك، فقد حالفني الحظ بمعرفة، أنني سأجد الباي صدقي من كل بد، يوم السابع والعشرين من أيلول، وفي مكان عمله. لكن تبين أن السابع والعشرين من أيلول، هو عيد اللغة التركية. وهكذا، عقدت كل آمالي على شهر تشرين الأول. وفي السادس من تشرين الأول، لم نستطع اللقاء، لأنه تم الاحتفال بتحرير استامبول في هذا اليوم. وبعد ثلاثة أيام، ذهبت إلى مكتبه، لكنني علمت هناك، أن الباي صدقي يحتفل بعيد زواجه. وبدءاً من الثامن والعشرين من تشرين الأول، تم الاحتفال هنا ولمدة ثلاثة أيام بعيد الجمهورية. وطبيعي، أنه ليس لائقاً إزعاج الناس في مثل هذا العيد الوطني العظيم. وسواء شئت أم أبيت، فقد اضطررت أن أنتظر شهر تشرين الثاني، وأنا آمل في الأيام القريبة، من التقاط الباي صدقي بين عيدين، ومن خلال نقاشي معه، سأتوصل إلى سبب ضعف نموهم.

مع احترامي.

* * *

٢/كانون الأول/١٩٥٨

عزيزي، مستر أويتي.

(٣) بربروس - ١٤٧٣ - ١٥٦٦ - القائد الشهير لأسطول الامبراطورية العثمانية.

بالرغم من أن فوند دجارتا قد توقف، ومنذ زمن بعيد، عن تمويل الأبحاث المتعلقة بالدول. ضعيفة النمو، مع ذلك، فقد أثار اهتمامنا جداً، سبب ضعف نمو البلد، الذي أنت فيه الآن. وسنكون ممتنين لك جداً، فيما لو تابعت إخبارنا عن نتائج أبحاثك.

مع احترامنا.

* * *

١٨/كانون الأول/١٩٥٨

سادتي.

إليكم معلومات موجزة، عما قمت به من جهود مضنية. في العاشر من تشرين الثاني، صادف يوم «الحداد الوطني»[٤]. انتظرت ثلاثة أيام حتى تخف حدة الشجن. وفي الثالث عشر من تشرين الثاني، ذهبت إلى الباي صدقي. وهناك أُخبرت، بأنه سافر إلى أنقرة للاحتفال بذكرى إعلان هذه المدينة عاصمة لتركيا. عاد بعد أسبوع، لكنني مع ذلك، لم أستطع اللقاء به، لأنه ذهب لحضور إحدى المباريات. بعد ذلك، صادف عيد البيان العالمي لحقوق الإنسان. وما أن انتهى العيد، حتى بدأ شهر مكافحة الذباب. وبهذا، يكون قد انتهى برنامج العمل لعام ١٩٥٨. أستقبل العام الجديد بكثير من الآمال، وسأداهم الباي صدقي مهما يكن، في أحد الأيام عندما لا تكون هناك أعياد أو مناسبات، أو احتفالات، أو مباريات. وسأوضح أخيراً، لماذا بقي هذا البلد، بلداً ضعيف النمو.

المخلص لكم تشارلز أويتي.

* * *

(٤) في العاشر من تشرين الثاني عام ١٩٣٨، توفي مؤسس الجمهورية التركية ورئيسها الأول مصطفى كمال أتاتورك.

٢٨ / شباط / ١٩٥٩

المستر تشارلز أويتي المحترم.

بعد رسالتك الأخيرة، والتي أثارت اهتمامنا جداً، لم نتلق منك أية أخبار. إننا قلقون إزاء صحتك.

فوند دجارتا.

* * *

١٠ / آذار / ١٩٥٩

سادتي المحترمين.

عام ١٩٥٩، عام طافح بالآمال بالنسبة لي. وفي هذا العام ـ كان الله بعوني ـ كلي أمل باللقاء بالباي صدقي. وبنيتي أن أزرع هذا الأمل في نفوسكم أيضاً.

في الأول من كانون الثاني، لم أذهب إليه بسبب الاحتفال بالعام الجديد. بعد ذلك، احتفل بمولد الرسول، ولم أحاول إزعاج الباي صدقي. ثم تلاه الاحتفال بيوبيل النصر بقيادة «اينونو»(٥) قررت، أنه من غير المستحب إزعاج الباي صدقي، وعقدت آمالي على شهر شباط. وفي الرابع من شباط، احتفل بليلة الإسراء والمعراج. وبهذه المناسبة، قام الباي صدقي برحلة إعلامية. أما أنا فتحريت التقويم بدقة، وعلمت، أنه لا أثر لأية أعياد في السادس عشر من شباط. وتحسن مزاجي. لكن الباي صدقي، دُعي في هذا اليوم، إلى منسف رز

(٥) في العاشر من كانون الثاني ١٩٢١. حقق الأتراك النصر على المعتدين اليونان تحت قيادة اينونو.

في المدرسة التي كان قد درس فيها. وفي الثاني والعشرين من شباط، تم الاحتفال بنزول الوحي على الرسول محمد. وقد رغبت في الذهاب إلى الباي صدقي غداً، لكنني علمت، أنه في الحادي عشر من آذار، يبدأ شهر رمضان. سأخبركم عن استكشافاتي اللاحقة.

تشارلز أويتي.

* * *

٢٤/نيسان/١٩٥٩

المستر تشارلز أويتي المحترم.

بعد رسالتك الأخيرة، والتي أثارت اهتمامنا جداً، لم نتلق منك أية أخبار.

فوند دجارتا.

* * *

٢٤/نيسان/١٩٥٩

سادتي المحترمين.

لمدة عامين، لم أستطع العثور هنا ولو على يوم واحد لكي أتحدث مع الباي صدقي وزملائه، إلا وكان عيداً. انتهى شهر رمضان في الثاني عشر من نيسان، وبدأ عيد الفطر. انتظرت عدة أيام لكي أعطي الباي صدقي إمكانية تمالك نفسه بعد عيد الفطر. ثم ذهبت إليه، لكن قيل لي هناك، أن اليوم، هو الثالث والعشرين من نيسان ـ عيد الأطفال ـ غداً سأرحل عن هذا البلد.

تشارلز أويتي.

* * *

عاد البروفيسور في علم الاقتصاد، المستر تشارلز أويتي إلى أمريكا. طلب منه فوند دجارتا أن يلقي محاضرة عن بحوثه. لكن المستر تشارلز أويتي قال: أعزائي اللطفاء. لقد فقدت الكثير من الجهود والوقت. لكن الأعياد أعاقتني عن اللقاء بأحد ما. ولم أستطع شرح سبب ضعف نمو هذا البلد. كما أنني لا أملك

أية معلومات بصدد هذه المسألة. كل ما باستطاعتي قوله، هو أنني شخصياً مهتم لدرجة كبيرة، لماذا هذا البلد ضعيف النمو.

ملاحظة: بعثت برسالة إلى الناشر، الذي وضع المخطوط تحت تصرفي، والـذي قرأتم بعضـاً منـه لتـوكم، ونصحته أن يبادر بسرعة إلى طباعته بشكل مستقل. فلنرَ، إن كان الناشر المحترم سيحقق رجائي.

«أمدّ الله بعمركم»

وصلنا إلى القرية الجديدة مع حلول المساء. توقف الصغار في ساحة صغيرة، حيث كان العمل يجري على قدم وساق. إذ كان ما يقارب الثلاثين فلاحاً يزيلون الثلج بمعاولهم وجواريفهم في وسط الساحة. لقد كان واضحاً في عيونهم وهيئتهم، أنهم غير راضين عن هذا العمل.

ثمة بقالية بجوار الساحة، وإلى جانبها انحشر مقهى. وبجانب المقهى مباشرة، انتصب كوخ عُلّقت عليه عبارة «مجلس المختارية». استقبلنا المختار عند باب المقهى يعتذر قائلاً: عدم المؤاخذة، أرجو المعذرة، لقد علمنا بوصولكم بشكل متأخر، وإلا لكنا استطعنا فعل كل شيء.

كان المختار يفرك يديه خجلاً، وقد بدا أنه متأثر جداً. أما أنا فلم أفهم شيئاً.

تابع المختار: ما أن علمنا بوصولكم، حتى جندت السكان فوراً، وأمرتهم بإزالة الثلج عن التمثال... ها قد بدؤوا لتوهم... كان الفلاحون يزيلون الثلج وسط الساحة بمزيد من النشاط. وفي النهاية، برز من تحت الركام الثلجي رأسا رجلين. وبعد عشرة دقائق، توضح الشكل النهائي للنصب التذكاري.

سألت مختار القرية وأنا في حيرة مما يجري: ماذا يعني هذا؟ وماذا يفعل هؤلاء؟

- أقسم لكم بالله يا بيك، أننا علمنا بوصولكم متأخرين، وإلا لتمكنا من فعل كل شيء.

ذهبنا إلى المقهى وشربنا الشاي. بعد ذلك، قادنا المختار إلى بيته. قال معترفاً: يشهد الله، أنكم لا تشبهون غيركم من الموظفين.

وبدأ الحديث، وراح المختار يحكي لنا قصة النصب التذكاري ذا الرأسين.

حدث ذلك منذ عدة أعوام. فقد أخبرنا، بأن شخصية هامة ستقوم برحلة في المناطق الشرقية لبلدنا، وأن هذه الشخصية، ستزور بعض القرى، وكالمعتاد، وضعت السلطات المحلية هنا برنامجاً للرحلة، وحددت الأماكن التي ستمر بها هذه

الشخصية الهامة. ثمة طريق واحدة فقط تصلح لسير السيارات، كانت تمر عبر قريتنا. أضف إلى ذلك، أن قريتنا هي من أكبر القرى في هذه المنطقة. ولذلك، قرروا أن يُروها بالذات لتلك الشخصية الهامة. وصل إلى القرية اناس مجهولون، وبدؤوا اتصالاتهم بالمدينة. أزالوا أحد البيوت الواقعة وسط القرية، وبنوا هذه الساحة مكانه. بعد ذلك أصدروا الأمر التالي: «على الفلاحين أن يبنوا تمثالاً». . والفلاحون لا يعرفون معنى كلمة تمثال. وهنا راح المسنون ممن خدموا في الجيش، أو كانوا قد وقعوا في الأسر، يشرحون للأميين والشباب والنساء، ماذا يعني التمثال، ومن أي شيء يصنع. ومع ذلك، لم يفهم الفلاحون شيئاً. لأنه وبغض النظر عن فهمهم من أي شيء تصنع، وكيف تبدو هذه التماثيل، فإن أكثرهم عبقرية لم يستطع شرح الهدف من إقامتها.

عندئذ أعلن مسؤولو الناحية: اجمعوا النقود بسرعة، سنوصي لكم على تمثال في المدينة.

اضطر الفلاحون إلى حل زنانيرهم، وراحوا يكشطون منها تلك القطع النقدية الصغيرة. وكان المبلغ المجموع قليلاً بشكل لا يعقل. تكررت عملية جمع النقود خمس مرات، ومع ذلك، لم يجمعوا ما يكفي لبناء التمثال. عندئذ، أعلن أحد المسؤولين، وكان يلبس نظارات وعقدة بيضاء: لا بأس، سنضيف المبلغ المتبقي، فالحكومة ستقدم لكم المساعدة هذه المرة.

بعد ذلك، بدأ مسؤول آخر بالكلام وقال: يجب عليكم إبداء رغبتكم في بناء التمثال خطياً.

وفعل الفلاحون ذلك أيضاً. وتمت التوصية على تمثالين من المدينة. بعد ذلك، وصل إلى القرية أناس مجهولون، وتحت إمرتهم، قام الفلاحون بإنشاء رابية كبيرة وسط الساحة، وزرعوا عليها العشب الأخضر والورود. ثم بني حول الرابية شيء ما يشبه السور صنع من القضبان الحديدية الغليظة. أما في الوسط، فقد وضعوا أساساً من الحجارة والآجر. وفي النهاية، وصل من المدينة تمثالان نصفيان مصنوعان من الجبس، وتم وضعهما على الأساس مقابل بعضهما وجهاً لوجه. ثم راحوا يدربون الفلاحين، كيف ينبغي عليهم استقبال الشخصية الهامة، والمكان الذي سيقفون فيه، وكيف سيصطف التلاميذ. حدثوهم عن الأسئلة التي يمكن

أن تطرحها عليهم تلك الشخصية الهامة، وشرحوا لهم، كيف ينبغي عليهم أن يجيبوا على هذه الأسئلة. وقد أمضى مدرّس القرية اسبوعاً كاملاً، وهو يجبر الفلاحين على حفظ هذه الأسئلة والأجوبة عن ظهر قلب. ولسوء حظ الفلاحين بدأ العام الدراسي، إذ اضطر الفلاحون المتعبون، المعذبون إلى المجيء في الأماسي إلى المدرسة... لقد كانوا يتصنعون الإصغاء إلى المدرّس، لكنهم في حقيقة الأمر، كانوا ينامون.

ـ أي...!.. أنتم يا رؤوس الخراف... إنكم لا تقدرون على حفظ كلمتين ـ خرج المدرّس عن طوره ـ لا فائدة ترجى منكم!.

كما هدد رئيس المخفر القرية كلها: إياكم أن تتفوهوا زيادة عما سيعلمكم إياه الأستاذ. قولوا ما يجب عليكم قوله فقط، ومن سيتفلسف منكم، سأحطم أسنانه.

ولكي لا تتعثر سيارة الشخصية الهامة في الطريق، دعيت القرية بأكملها ليتم إصلاحها. وقد توجب ردم الحفر وإزالة التلال منها. وهكذا تمت التحضيرات، وحان موعد وصول الشخصية الهامة إلى القرية. أما السيارات، فكانت تصل إلينا بلا انقطاع. وكان الأولاد يفرحون لذلك. إذ كانوا يقضون ساعات متواصلة قرب هذه السيارات.

وذات مساء، أعلنوا للفلاحين: يمنع العمل في الأرض غداً. لأننا سنقوم بالتدريبات.

وفي الصباح، جاء سكان القرية كلهم إلى الساحة، وفي الجموع تركوا ممراً خالياً لتسير السيارة عبره. أما التلاميذ، فقد اصطفوا في مكان خاص. وفيما يتعلق بالحفاة وذوي الملابس السيئة فقد تم إبعادهم إلى الصف الأخير. ترادف الفلاحون في صف واحد. ثم جلبوا طاولة المدرّس من المدرسة ووضعوها قرب التمثال. ثمة سيد ذو لحية حمراء وقف على الطاولة وبدأ يزعق: انتباه.. انتباه! ستصل السيارة إلى هنا الآن. وما أن تتوقف، حتى تبدؤوا بالتصفيق دفعة واحدة كما سبق لنا وعلمناكم. لكن تذكروا، أنه ينبغي عليكم أن تصفقوا من أعماق قلوبكم، من عمق أعماقكم... طبعاً سيخرج من السيارة إنسان ما ويقول لكم: «مرحباً أيها الفلاحون» أو «كيف أحوالكم؟» فعليكم أن تردوا عليه فوراً «دامت

صحتك» ثم عندما سيقترب منكم، فإنه عليكم أن تفترسوه بعيونكم، وأن ترافقوه بنظراتكم. . . لكن ذلك لا يعني أن تفتحوا أفواهكم حتى آذانكم.

تحدث الرجل ذو اللحية الحمراء طويلاً وفي النهاية سأل: «مفهوم؟ زعق الفلاحون دفعة واحدة: مفهوم! مفهوم!. . .

وبدأت التدريبات. وصلت السيارة إلى الساحة وتوقفت، ودوى التصفيق.

- لا. . لا. . . - صرخ الرجل ذو اللحية الحمراء - صفقوا بشكل أقوى. . من أعماقكم.

رجعت السيارة إلى الوراء، وبعد دقيقة وصلت إلى الساحة، ودوى التصفيق من جديد.

بدأ الرجل ذو اللحية الحمراء يشد شعره قائلاً: ستشرشحوننا إن صفقتم هكذا. مرة أخرى، لكن من الأعماق.

تم تكرار ذلك عشر مرات، وأخيراً انسر ذو اللحية الحمراء. جاء دور «دامت صحتك». ملأ الفلاحون صدورهم بالهواء استعداداً لإطلاق هذه التحية. وأول ما قاله الرجل، الذي يمثل دور الشخصية الهامة: المكان ضيق جداً، عودوا إلى الوراء أيها الفلاحون. لكنه ما كاد يغلق فمه، حتى زعق الفلاحون وسع حناجرهم: دامت صحتك. . . !

كاد الرجل، ذو اللحية الحمراء أن يسقط من على الطاولة. إذ غضب بشكل لا يصدق. وهكذا الحال بالنسبة لضابط الدرك. أما الفلاحون، فلم يفهموا أبداً، سبب هذا الغضب. فهم قد صرخوا معاً وبقوة وفي اللحظة المناسبة، ما كان قد طلب منهم. قفز ذو اللحية الحمراء، واندفع إلى صف الفلاحين، وأمسك بقبة أحد الواقفين في الأمام وصرخ: أية قذارة - جعد وجهه وتابع - تفوه. . أية رائحة. . . ! قلب قبة القميص وسحب يده جانباً بسرعة: ما هذا؟ ما هذا؟ قمل؟ نظر الفلاح إلى المدرّس. فهو على حد علمه، لم يقل لهم كيف ينبغي الإجابة على مثل هذا السؤال.

صرخ الرجل ذو اللحية الحمراء مرة أخرى: إنني أسألك، ما هذا؟ فهم الفلاح: أن لا فائدة من انتظار المساعدة من المدرّس «لقد قال هذا المدرّس شيئاً

ما، لكنني نسيتـــه. . . لا بأس. . . سأقــول ما أذكـــره». قرر ثم قال: هذا بفضلكم، أمد الله بعمركم.

انقض رجـال الـدرك على الفـلاح وقـادوه إلى المخفـر. بعد ذلك، راح المسؤولون الواحد تلو الآخر يصعدون إلى الطاولة ليلقوا الخطابات. ورنم التلاميذ الصلاة وانتهى التدريب. ورحنا ننتظر قدوم الشخصية الهامة.

مرَّت أعوام والفـلاحون لازالوا ينتظرون. أما التمثال ذو الرأسين، فهو الآخر لايزال يقبع في الساحة. الطيور تحط على الرأسين. . لو ذلك فقط. . إنها تذهب أبعد من ذلك. . .

وذات مرة، وصل مسؤولون من المدينة، ونال المختار عقابه منهم. والآن، وبأمر من المختار، فإن أحد الأولاد يحرس التمثال في الصيف ليطرد الطيور عنه. وفي الأعياد، يدهن الفلاحون التمثال بالكلس. لكن القضية، هو أن الثلج يغمر الساحة في الشتاء ولذلك، فقد أصدر رئيس المخفر القرار التالي: «في حال وصول المسؤولين إلى القرية، يتوجب على الفلاحين إزالة الثلج عن التمثال ودهنه».

وهكذا، فإن الفلاحين بدؤوا بالتنقيب عن التمثال لدى سماعهم بوصولنا إلى القرية، لكنهم لم يلحقوا. . .

«الماليّون السحرة»

قصتي هذه، معقدة ومشوشة. وأنا أخشى فيما أخشاه أن أشوش رؤوسكم بسردي لكم إياهـا. اسمعوا مع ذلك، فهي قصة غير عادية أبداً، لقد جرت لخمسة من معارفي.

ولكي يتصادف ويجتمع خمسة رجال مع بعضهم بعضاً، لا بد من صلة تربطهم جميعاً. ثلاثة منهم كانوا شخصيات مالية مرموقة. واثنان آخران هما كما يقال، عقلان كبيران في عالم الأرقام. وهذا ما وحد أبطال قصتي هذه.

طلعت بيك، مدير عام لواحـد من أضخم بنـوك البلد، استضـاف في مقصورته الجديدة في السويدية، أربعة من أصدقائه المقربين. وتم اللقاء ذات يوم واحد

وطلعت بيك ـ هو أحد عباقرتنا في المسائل المالية والمصرفية. فقد أمضى سبعاً وعشرين سنة موفقة في المجال المصرفي. وهو يتقن المسائل المالية بروعة دونما خلل في الأرقام، لدرجة أن أصدقاءه يقولون عنه: «ما أن يدخل طلعت بيك إلى دكان خال ويعلق على بابه كلمة «بنك» فإنه لن تمر سنتان، حتى يتحول هذا الدكان إلى بنك برأسمال قدره مئتا مليون ليرة». وطلعت بيك أنقذ بنوكاً عديدة خاسرة من الإفلاس، وفوق ذلك، جعلها من أكثر البنوك ازدهاراً و أكثرها ثقة في البلد.

أحد المدعوين كان لطفي بيك. وهو رجل أعمال شهير يتقن التجارة منتهى الإتقان. يقال عنه: «أن روث البقر يتحول إلى ذهب في يديه» فالتراب الذي كان يلمسه، يتحول إلى مال في لمح البصر. وهذا لم يكن نتيجة عملية سحرية، أو فرصة سانحة أو حظ، بل نتيجة حساب مالي فقط. لأن لطفي بيك، لم يكن ليلمس تلك الأرض، التي لا تتحول إلى مال.

أما الضيف الثاني، فكان زكي بيك. وهو أحد أهم كبار الموظفين في وزارة

المالية. يقال، أن وزارة المالية برمتها قائمة على كتفيه. وقد أطلق عليه الأجانب، عبقري تركيا المالي.

أما الضيفان الآخران، وهما رفيق بيك، وضياء بيك، فكانا زميلي طلعت بيك في المدرسة.

وضياء بيك يرأس مرصد استامبول، ويعتبر فلكياً كبيراً. أما رفيق بيك، فيعتبر نجماً في حقل الرياضيات العالية. وهو بروفيسور في كلية الفيزياء والرياضيات في جامعة استامبول.

وصل الضيوف الأربعة مع أسرهم. وفي الصباح، سبحوا في البحر، ثم تلذذوا بشرب القهوة بعد الغداء. منهم من غفا مضطجعاً على كرسيه، وآخرون قرروا أن يناموا فاختلوا بأنفسهم. أما طلعت بيك وزكي بيك، فجلسا يلعبان طاولة الزهر لقاء مبلغ صغير تصاعدي. وبعد الدور الرابع، وبدءاً من المبلغ الأول خمسة وعشرين قرشاً، ربح طلعت بيك ثلاثمئة وخمسة وسبعين قرشاً. لكن مثل هذه النقود الصغيرة، لم تكن متوافرة عند زكي بيك. ولذلك أعطى لطلعت بيك ورقة من فئة العشر ليرات. ولكي يعيد طلعت بيك باقي المبلغ لزكي بيك، أخرج من جيبه خمس ليرات في البداية، ثم ليرتين ونصف ـ كل ما يملك ـ أخذ زكي بيك النقود وقال:

ـ إذاً ينبغي عليّ أن أعيد لك... كم عليّ؟

ارتبك طلعت بيك:

ـ ينبغي عليك... ـ تمتم قائلاً ـ انتظر... سأقول لك الآن...

بحث زكي بيك في جيوبه ووجد ليرة فضية وأعطاها لطلعت بيك، وذلك رغبة منه في تسهيل الحساب، ثم سأل:

ـ ما النتيجة الآن؟

ـ أعطيتك سبع ليرات ونصف ـ قال طلعت بيك.

ـ صحيح.

ـ لكن، كم كان عليك أن تدفع لي؟

ـ أعطيتك ليرة أخرى.

ـ كان عليك يا حبيبي أن تدفع لي ثلاثمئة وسبعين قرشاً، صح؟

ـ صح .
ـ إذاً، أعطني مئة وسبعين قرشاً بعد .
ـ ولكنني أعـطيتـك ليرة أخـرى، وقبل ذلك عشر ليرات . . المجموع ـ إحدى عشرة . . أما أنت فأعطيتني . . .
ـ انتظر . . انتظر . . لا تشوشني .
ـ أنت أعطيتني خمس ليرات وليرتين ونصف أيضاً . . .
استيقظ ضياء بيك ورفيق بيك بسبب هذا الجدال .
ـ ما القضية؟ ما الذي يجري لكما؟
ـ اسمع يا عزيزي رفيق ـ قال صاحب البيت، طلعت بيك ـ لقد غلبته في طاولة الزهر . وعليه أن يدفع لي ثلاثمئة وخمسة وسبعين . . .
ـ انتظر . . انتظر ـ قاطعه زكي بيك ـ الأفضل أن أخبره أنا .
لقد لعبنا أربعة أدوار في طاولة الزهر لقاء مبلغ . . وكل دور بدأ من خمسة وعشرين قرشاً . . .
ـ انتظر يا زكي ، إنني لا أفهم لِمَ كل هذه التفاصيل ! فقد كان بإمكاننا أن نبدأ من خمسة وعشرين ومن خمسين . لكن قُلْ ، ألا يجب عليك أن تدفع لي ثلاثمئة وسبعين قرشاً؟
ـ يجب . . ولكنني أعطيتك إحدى عشرة ليرة .
ـ صحيح ، لكنني أعدت إليك باقي المبلغ ـ سبع ليرات ونصف . وهذا يعني ، أنه عليك أن تدفع لي . . .
ـ حسناً، ولكنني أعطيتك ليرة أخرى فيها بعد .
قال رفيق بيك ، البروفيسور في الرياضيات العالية :
ـ انتظرا . . . لا تشوشا رأسي ، وليتكلم كل منكما على حده ، لكي أستطيع فهم ما يجري . كم أعطيته يا زكي ؟
ـ عشر ليرات .
ـ وكم توجب عليك دفعه؟
ـ ثلاثمئة وخمسة وسبعين قرشاً، لكن . . .
ـ حاول أن تتكلم بدون هذه «اللكن» .

ـ ثم أعطيته ليرة أخرى أيضاً.
ـ مفهـوم، إذاً كان عليك يا طلعت أن تدفع لزكي باقي المبلغ ـ ستمئة وخمسة وعشرين قرشاً. وأنت أعطيته سبع ليرات ونصف. وفي هذه الحال يجب عليك أن. . . انتظرا. . . سأقول الآن. . . الآن عليك أن تدفع له. . . لنطرح إحدى عشرة ليرة من سبع ليرات ونصف. . . ما النتيجة؟
ـ كيف يمكن طرح عدد كبير من عدد صغير؟
ـ آه. . . عفـواً. . . يجب طرح ستمئـة وخمسـة وعشرين قرشاً من سبع ليرات ونصف. لنحسب. . . ما النتيجة؟ مئة وخمسة وعشرون قرشاً. . . صحيح؟
ـ الله . . الله! ـ ولكنني أعطيته عشر ليرات.
تدخل في النقاش عالم الفلك ضياء بيك.
ـ لقـد شوشتم كل شيء. . . تحدث يا زكي بالتسلسل. يجب عليك أن تدفع لطلعت ثلاثمئة وخمسة وسبعين قرشاً، صح؟
ـ يا عزيزي، لقد أعطيته إحدى عشرة ليرة. . . وهو الآن مدين لي.
ـ إذاً، طلعت أعاد لك سبع ليرات ونصف؟ سبع ليرات ونصف، زائد إحدى عشر ليرة، تساوي. . .
ـ لا شيء من هذا القبيل يا صديقي! لقد خسرت أمام طلعت بثلاثمئة وخمس وسبعين قرشاً. والآن انظر. . .
ـ فهمت الآن. . . اعطه مئة وخمسة وعشرين قرشاً أيضاً. . .
ـ يا إلهي، يا إلهي! . . . ولماذا هذه المئة وخمسة وعشرين قرشاً أيضاً؟
إنني أعطيه وأعطيه، أما هو فلا يدفع لي شيئاً!
ـ ومن يدفع غيرك، أنت الخاسر!
ـ مئة وخمسة وعشرين؟
ـ لا. . .
ـ اسمع يا ضياء. لقد أعطيته في البداية عشر ليرات. ثم أعطيته ليرة أخرى. المجموع إحدى عشرة ليرة.
ـ وكم أعطاك طلعت؟ سأل رفيق بيك.
زفر الفلكي قائلاً:

ـ لقد شوشتما رأسي. هل معك خمسة وعشرون قرشا؟

وجد زكي بيك خمسة وعشرين قرشاً في جيبه؟ وأعطاها لطلعت بيك.

ـ إليك خمسة وعشرين قرشاً أيضاً.

ـ كم بقي الآن؟ ـ سأل طلعت بيك.

ـ من أين لي أن أعرف كم بقي؟ لقد شوشتما كل شيء. فهو في البداية أعطاك عشر ليرات، ثم ليرة، ثم خمسة وعشرين قرشاً، المجموع إذاً، إحدى عشرة ليرة وخمسة وعشرون قرشاً. والآن أعطه ليرة أخرى يا طلعت.

ـ يا رب، يا عادل! . . . اسمع، ولكنني سبق وأعطيته سبع ليرات ونصف.

هرع طلعت بيك إلى الغرفة المجاورة، حيث كان رجل الأعمال الكبير لطفي بيك غارقاً في نوم عميق. رفعه من يده، وجره إلى الأصدقاء.

ـ بحق الله يا لطفي، ساعدنا في حل هذه المعضلة!

ـ عزيزي لطفي ـ قال زكي بيك ـ لقد لعبنا في طاولة الزهر لقاء مبلغ . . .

ـ اسمع يا زكي، كفاك حديثاً عن النقود!

ـ لقد لعبنا في طاولة الزهر. . .

ـ وما دخل طاولة الزهر هنا؟ ألست مديناً لي بدفع ثلاثمئة وخمسة وسبعين قرشاً؟ . . . مدين!

ـ ولكنني أعطيتك إحدى عشرة ليرة وخمسة وعشرين قرشاً.

ـ صحيح، لكنك حصلت على باقي المبلغ ـ سبع ليرات ونصف.

ـ مفهوم ـ قال لطفي بيك ـ أنت أعطيته سبع ليرات ونصف، ولماذا؟

ـ لم تكن معي نقود صغيرة.

ـ وأنت، لماذا أعطيته إحدى عشرة ليرة؟

ـ هو طلب مني ذلك. لم تكن هناك نقود صغيرة. . .

ـ الأمر واضح، وهو من أبسط ما يكون. إحدى عشرة ليرة، زائد خمسة وعشرون قرشاً، ثم ثلاثمئة وخمسة وسبعون قرشاً.

ـ لا تجمع يا صديقي، بل إطرح.

ـ لا تعلمني. . في البداية يجب أن نجمع وبعد ذلك نطرح. . . أنت أعطيته آخر مرة خمسة وعشرين. . .

لقد أصبح الحساب معقداً، لدرجة أن تدخل لطفي بيك لم يجد نفعاً.

ـ توقفوا ـ صرخ أخيراً ـ والآن سأحل المسألة. ليعد كل منكما ما كان قد دفعه للآخر. خذ يا زكي خمسة وعشرين قرشاً من طلعت... نعم هكذا... وأنت يا طلعت، خذ سبع ليرات ونصف. كم دفعت له في البداية يا زكي؟

ـ عشر ليرات، وليرة أخرى أيضاً.

ـ يعني إحدى عشرة ليرة؟ خذها منه.

وتمت المبادلة.

ـ والآن، أعطه عشر ليرات ـ أمر رجل الأعمال العظيم ـ نعم هكذا...

وأنت، أعطه المبلغ المتبقي من هذه العشر ليرات.

ـ لا يوجد معي سوى هذه السبع ليرات ونصف.

ـ خذ يا زكي السبع ليرات ونصف.. والآن، أنت مدين له.. كم عليك أن تدفع؟

ـ لازالت معي ليرة وخمسة وعشرون قرشاً.

ـ أعطها. ما النتيجة الآن؟

ـ تماماً كما كانت.

ـ رائع... والآن ينبغي عليك أن تدفع له... لحظة... أعطه مئة وخمسة وعشرين...

ـ لا يوجد معي...

ـ إذاً، اعطه مئة وخمسة وعشرين قرشاً يا زكي.

ـ وماذا ستكون النتيجة؟

ـ أعطه.. أعطه.. والآن ستأخذ منه... كيف حصل ذلك؟...

اختلطت الأمور من جديد.

ـ اسمع...

ـ اوه.. اوه.. اوه...! كم أعطيتني يا عزيزي؟

ـ كم؟ كم أعطيتك؟!

ـ ولكنك...

ـ توقفا ـ قال البروفيسور رفيق بيك ـ ليعد كل منكما نقوده للآخر.

تناقلت النقود من يد لأخرى عدة مرات. لكن طلعت بيك وزكي بيك لم يتمكنا من تسوية حسابهما.

أما الفلكي ضياء بيك، ورغبة منه في مساعدة صديقيه، فقد قام بصرف عشر ليرات زكي بيك. وبعد عملية الصرف هذه، وقع الأصدقاء في مأزق.

وقبيل المساء، أمر لطفي بيك:

ـ ليعد كل منكما نقوده للآخر مرة أخرى!

أعاد كل منهما نقوده للآخر. بعد ذلك، توجه لطفي بيك قائلاً لساحر تركيا المالي:

ـ تذكر يا زكي، أنه يجب عليك أن تدفع لطلعت ثلاثمئة وخمسة وسبعين قرشاً. ستدفعها له عندما تتوفر النقود الصغيرة معك، مفهوم؟

ـ مفهوم.

ـ الحمد لله، حُلّت المشكلة.

وبذلك انتهت القضية.

«أم لثلاثة ملائكة»

بصعوبة تمكن الرجل العجوز من جرّ ساقيه. وفي رأسه تراقصت أفكار محمومة، هي:

«من أصعب الأشياء، أن ترمي ثقلك عن كتفيك. . . » ـ «هذه السيارات تسير كالكلاب المسعورة. . . » ـ «أمر غريب: كلما خف وزنك، كلما صعبت حركتك. . . » ـ «يا لها من سيارات فاخرة مختلفة الألوان والأجناس» «كم أزن يا ترى؟ خمسين كيلو غراماً! لا أظن! خمسة وأربعين بالحد الأقصى».

وهنا سعل ثم زفر:

«ومن كان يظن، أنني سأصل إلى مثل هذه الحالة. . . لو كان معي نقود. . . ثمن كعكتين! . . . وكأس من الشاي الساخن. . . ». السيارات تندفع كالكلاب المسعورة.

ظهرت سيارة سماوية اللون براقة. وخلف المقود جلست امرأة رائعة كروعة الشِعر نفسه. مرسلة الشَعر. خففت السيارة من سرعتها قليلاً. تهيأ للرجل العجوز، كما لو أن المرأة خلف المقود تنظر إليه نظرة ثاقبة.

ابتسم الرجل العجوز ذو الخدين الغائرين:

« لا ينقصني الآن سوى ممارسة الدعارة».

توقفت السيارة البراقة، السماوية اللون أمام الرجل. وعندما حاذاها الرجل العجوز، مدت المرأة رأسها من النافذة. لا. . . لم يخطىء: إنها تنظر إليه بالفعل.

تحركت السيارة السماوية اللون إلى الأمام، ثم توقفت من جديد. والمرأة لا ترفع عينيها عن الرجل العجوز. محتمل أنها أخطأت في التمييز وظنته إنساناً آخر؟ أم أنها أشفقت عليه؟ «يجوز أنني أعجبتها؟» هكذا فكر العجوز بسخرية كئيبة.

أما السيارة، فكانت تتحرك للأمام ثم تتوقف من جديد. عبر الرجل العجوز الشارع إلى الناحية اليمنى. أما تلك المرأة الجميلة، فكانت تتابع النظر

إليه عبر النافذة الأخرى. «لقد كنت وسيماً في صباي» فكر العجوز واضعاً يديه على خاصرته.

عاد إلى الجهـة اليسرى من الشارع. توقفت السيارة السماوية اللون إلى جانبه، وصرخت المرأة عبر النافذة:

ـ افتح الباب واجلس.

ارتبك العجوز. لكن وجه المرأة البشوش منحه الشجاعة. فصعد وجلس. وتحـركت السيارة. كانت المـرأة صامتة. وكذلك كان الرجل العجوز. اقتربت السيارة من بنـاية كبيرة. وعند المدخل، استقبلتهما الخادمة وقد انحنت إعجاباً بالرجل العجوز. دخلوا إلى غرفة مفروشة بأثاث فاخر. وعلى الفور، أمرت المرأة الرجل العجوز:

ـ اخلع ملابسك!

ـ سيدتي. . اسمحي لي بالاغتسال على الأقل.

ـ قلت لك، اخلع ملابسك!

يبدو أن المرأة جائعة لدرجة الألم، مادام صبرها نافذاً إلى هذا الحد.

خلع العجوز قميصه الوسخ الرديء.

ـ والبنطال أيضاً!

والآن، لم يعد لديه أي مجال للشك. لقد نسي جوعه وتعبه، وراح يلتهم بعينيه ردفيها العريضين وصدرها المنتفخ. «ولم لا؟! ـ فكر العجوز ـ إنها مهووسة بي. لقـد أمرهـا قلبهـا واختارتني أنا بالذات!» «ربي، أسألك المقدرة. . . لا تخذلني!» وما ان أنهى العجوز دعاءه، حتى خلع بنطاله واتجه إلى المرأة.

ـ اخلع السروال الداخلي أيضاً.

أمرته المرأة وهي تضغط على زر الجرس. دخلت الخادمة، وكانت شهية مثل سيدتها ربة البيت.

تيقظ الرجل العجوز «لا، ذلك كثير!» ـ هكذا راح يفكر ـ «إن سني لن يمكنني من إثنتين!».

توجهت صاحبة البيت قائلة للخادمة:

ـ قولي للمربية، أن تستدعي الأطفال إلى هنا.

خرجت الخادمة، وبقي العجوز عارياً. كان يرتجف إما من البرد، وإما من الاضطراب. لقد سمع ذات مرة، أن واحدة حسناء قررت الانتقام من زوجها لخيانته لها، وذلك بدعوة أول رجل تقع عيناها عليه. «وهي تريد أن تتخذ مني وسيلة للانتقام» فكر العجوز. وهو يصلح كوسيلة.

دخلت المـربية والخـادمـة وثلاثة أطفال. بنتان وولد. عمر الأولى عشرة أعوام، والثانية حوالي الستة أعوام... ثلاثة أطفال... بل ثلاثة ملائكة رائعون.

«لا ضير من فعل ذلك أمام المربية والخادمة ـ فكر العجوز ـ لكن أمام الأطفال!...».

كانت ساقا العجوز مثل عصوين. ويداه كحبل، ورقبته مثل القشة. أما عود أضـلاعه، فكان بالامكان معرفتها من بعيد. إنه ليس إنساناً، بل هيكل عظمي مغلف بجلد أصفر قذر...

توجهت صاحبة البيت بالكلام للمربية:

ـ هل أكلت «إيسيل» اليوم؟

ـ قليلاً جداً.. لم تشرب الكاكاو ـ أجابت المربية.

ـ وهيكسيل؟

ـ لم تأكل أبداً.

ـ وألطان؟

ـ ابتلع قطعة شوكولا صغيرة.

استدارت المرأة الجميلة نحو أطفالها وأشارت إلى العجوز الهزيل الوسخ:

ـ هل ترون هذا الإنسان؟ لقد هزل وتحول إلى هيكل عظمي، فإن لم تأكلوا، فإنكم ستصبحون مثله.

التصق الملائكة الثلاثة بردفي أمهم خائفين. أما المرأة الرائعة كروعة الشِعر، فأمرت الرجل العجوز الهزيل:

ـ والآن ألبس ثيابك وانقلع من هنا بسرعة.

ـ كيف تم اعتقال حمدي، الملقب بـ «الفيل»* ـ

* حازت هذه القصة على جائزة السعفة الذهبية في المسابقة الدولية التاسعة للكتّاب الساخرين في ايطاليا سنة ١٩٥٦.

عممت دائرة الأمن في استامبول، برقية إلى كل دوائر الأمن في الأقاليم تتضمن ما يلي: «اغتنم صاحب السوابق، المجرم القديم، الملقب بـ ـ حمدي الفيل ـ فرصة نوم شرطيين مشياً على الأقدام، بعد ثلاثة أيام وليال من قيامهما بالحراسة المتواصلة، ولاذ بالفرار. عمره خمسة وثلاثون عاماً. طويل القامة. يزن ـ ٢٠٠ ـ كيلو غرام. أصهب. تنقصه ثلاثة أسنان. في فكه العلوي سن واحد حقيقي محشو. وعلى نابه السفلي من الناحية اليسرى، يوجد طربوش ذهبي ـ يرتدي طقماً مخططاً بني اللون ـ قليل الشعر. مستدير الوجه. بنيّ العينين. واقعة الفرار تؤكد بكل وضوح على القيام بالتحريات. ففي حال ظهور حمدي الفيل في أحد أقسام الشرطة التابعة لكم، أو إذا جاء لطلب وثيقة ما من أحد رجال الشرطة، تكرموا بإخباره، أننا نرجوه ألا يضعنا في موقف حرج وأن يحضر مع المجرم إلى دائرة الأمن في استامبول، في أي وقت يراه مناسباً له. نرسل ربطاً صورة الجرم الفارّ ذي السوابق حمدي الفيل».

* * *

حديث بين شرطيين في محطة قطار تابعة لأحد الأقاليم:

ـ أي.. صديقي رمضان... انظر إلى ذلك الموديل، الذي يشرب السحلب... أعتقد أنه حمدي الفيل.

ـ م م م... يشبهه... ولكن أرني صورته

أخرج الشرطي صورة ما من جيبه وأعطاها لزميله.

ـ لا يا رمضان... إنها صورتك أنت!

ـ صحيح، لقد تصورت في العيد، ألست جميلاً؟

ـ جميل، لكن كان عليك أن تبتسم . . . أعطني صورة حمدي الفيل.

أخرج الشرطي مجموعة من الصور وبدأ يفرزها.

ـ هي ذي صورة ابني . . . ذكرى من أيام الخدمة العسكرية . . وهذا من يا محمود؟

ـ أي . . أي . . أي . . أعتقد أنه المهرب دومان علي، ذلك الذي مارس مهنة الأبطال.

ـ وهذا النموذج من فندق صبحي . . . أخ . . . لقد اختلطت الصور.

ـ ابحث بسرعة عن هذا الفيل حمدي يا رمضان!

محمود ورمضان يبحثان في الصور.

ـ اسرع يا محمود . . . لقد شرب السحلب . . والآن سيهرب.

ـ انظر إليه كيف يتلفت.

ـ وجدتها . . . إنه هو بالذات.

تقدم الشرطيان من الشخص المشتبه به.

ـ قف يا صاح!

الشرطيان ينظران إليه تارة، ثم إلى الصورة تارة أخرى.

ـ قف بشكل جانبي يا أخ.

ـ يبدو أنه لا يشبهه يا رمضان.

ـ دع السيد المفوض ينظر إليه . . . فهو أكثر خبرة منا.

ـ تحرك يا أخ . . . هيا معنا إلى القسم.

* * *

في إقليم آخر. شرطيان يتحدثان في أحد الأسواق.

ـ أمر مخجل يا أخ شكري . . . حل المساء ونحن لم نتمكن من إلقاء القبض على هذا الفيل حمدي.

ـ أليس جائزاً أن يكون ذلك الرجل؟

ـ يمكن أن يكون كذلك . . تعال نسأله.

ـ ما اسمك يا سيد؟

ـ مصطفى .

الشرطيان يتهامسان .

ـ يقول أن اسمه «مصطفى» !

ـ إنه لن يقول لك بصراحة أنا «حمدي الفيل» !

ـ صحيح . . . يا له من محتال كبير!

ـ ألا تسمح بالذهاب معنا يا سيد؟

* * *

في إقليم آخر، وفي أحد المقاهي ، جلس شرطيان يبثان هموهما لبعضهما بعضاً .

ـ البارحة اعتقلت ثلاثة من هؤلاء الفيلة حمدي . . لكن أحداً منهم لم يعجب مفوضنا .

ـ أصارحك القول، إن مفوضنا رجل متعنت .

ـ اسكت . . . التفت إلى ذلك الشخص، الذي يشرب الشاي .

ـ فعلاً . . إنه هو بذاته .

ـ لكن البرقية تقول أنه بدين ، أما هذا فنحيل كالهيكل العظمي .

ـ هذا يعني أنه نحل . . من السهل التخفّي .

ـ هذا صحيح . . لكنه أسود الشعر، أما حمدي الفيل، فشعره كستنائي على ما أظن .

ـ يبدو أنه تسكع طويلاً في الجبال والمروج تحت أشعة الشمس ، ولهذا اسود شعره .

ـ إنها الحقيقة فعلاً . . . لكن المؤلم، هو أن شعره أسود وكثيف، وفي البرقية يقولون ، أن شعر حمدي الفيل قد تساقط .

ـ يبدو أنه وضع على رأسه شعراً مستعاراً كي لا يتعرف أحد عليه .

ـ وماذا ننتظر . . لنعتقل هذا اللئيم .

تقدم الشرطيان من الرجل.

ـ ما اسمك؟

ـ حمدي.

حدجه الشرطيان بنظرة ثاقبة وهما يضحكان.

ـ هيا معنا إلى القسم.. تحرك!

ـ ما الأمر؟ ما الذي حدث؟

ـ لا تثرثر. ستعرف في القسم.

* * *

على جزء صغير من شارع معبد، اعتقل شرطيان أحد المارة:

ـ افتح فمك!

ـ لا يوجد في فمي أي شيء!

ـ لا بأس، مع ذلك افتحه وبهدوء.

فتح الرجل فمه. الشرطيان يمعنان النظر في أسنانه. الشرطي يسأل زميله الآخر:

ـ انظر إلى البرقية، كم من الأسنان تنقص حمدي الفيل؟

الآخر يقرأ:

ـ «تنقصه ثلاثة أسنان. في فكه العلوي سن واحد حقيقي محشو. وعلى نابه السفلي من الناحية اليسرى يوجد طربوش ذهبي...».

الشرطي يعدّ أسنان الرجل.

ـ واحد، إثنان، ثلاثة، أربعة، إهدأ ولا تتحرك، لقد أخطأت... واحد، إثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة... أربعة وعشرون! إن لديه أربعة وعشرين سناً.

ـ أربعة وعشرون؟ كم سناً ينقصه؟ كم سناً ينقصك، هل تعرف؟

ـ ثمانية!

ـ خلعهم.. لقد خلع أسنانه كي لا يتعرف أحد عليه.

ـ سيدي الشرطي، إن كل أسناني اصطناعية، ولا واحد منها طبيعي.
ـ اسمع.. انظر إلى البرقية، ألا يوجد فيها شيء ما عن الأسنان الاصطناعية؟
ـ كلا.. لقد نسوا.. أقسم بالله أنه هو... الفيل.. انظر إلى فكه السفلي.. هو ذا الطربوش الذهبي.. هيا معنا يا سيد.
ـ إلى أين؟
ـ إلى القسم.. تحرك.

* * *

مئات البرقيات تصل كل يوم من مخافر الأقاليم إلى دائرة الأمن في استامبول: «رداً على برقيتكم المرسلة في التاريخ الفلاني.. تم في إقليمنا اعتقال أربعة عشر «حمدي» ولكنهم في بدلات بنية مخططة. لدى ثمانية منهم أنياب ذات طرابيش ذهبية. تفضلوا بإرسال إرشاداتكم: هل ترضيكم كمية المطالب هذه، وهل ضروري متابعة التحريات».

أو مثل هذه البرقية:

«رداً على برقيتكم ذات الرقم كذا، والمرسلة بتاريخ كذا... تم في إقليمنا اعتقال دزينتين من الفيلة حمدي.. يتراوح وزن الواحد منهم بين مئة وثمانين ومئتين وعشرين كيلو غراماً. والاختلاف في الأوزان، ربما يعود إلى عدم دقة الموازين.. وعيون هؤلاء كلها بنية. وليس هناك مجال للشك، بأن جميعهم يعتبرون «الفيلة حمدي». وقد أرسل المعتقلون تحت الحراسة. التحريات لازالت مستمرة. كما أن جميع المعتقلين سيرسلون إلى الإدارة المركزية للأمن حسب إلقاء القبض عليهم، وهو ما نخبركم عنه بإجلال».

* * *

برقية مرسلة من الإدارة المركزية للأمن في استامبول، إلى دوائر الأمن في الأقاليم:

«امتلأت السجون كلها بالمعتقلين. نُقِرّ لكم، أن أعدادهم قد أصبحت

كافية. أتـوجـه بالشكـر للجميع وأقترح، إيقاف جميع التحريات والاعتقالات لحموي الفيل، بدءاً من الآن وحتى تسلمكم أمرنا اللاحق».

. . . .

ملاحظة: تم إلقاء القبض على حمدي الفيل.

* * *

«مؤتمر الجراحين»

انعقد المؤتمر الدوري العالمي للجراحين في مدينة لوبليكس. وقد أعار أطباء العالم أهمية كبيرة لندوة أساتذة المبضع هذه، وهي الأكبر من نوعها بالمقارنة مع سابقاتها. شارك في المؤتمر أكثر النجوم العالمية شهرة، كما أن كل مراسلي وكالات الأنباء العالمية وصلوا إلى مدينة لوبليكس، لنقل وقائع المؤتمر العاشر للجراحين. علماً، أن ذلك لم يكن بالحدث الهام لهذه الدرجة، كأهمية مباراة بكرة القدم مثلاً، أو مثل استعراض للملابس الداخلية في مؤتمر صحفي نظمته سينمائية ـ ملكة الإثارة الجنسية ـ شقراء أو سوداء الشعر.

وقد استعد مشاهير الجراحين من ثلاثة وعشرين بلداً، لإلقاء تقاريرهم العلمية في المؤتمر. وكان من بين هؤلاء، مهرة حاذقون، استطاعوا بعيون مغمضة، فك وتركيب الإنسان كساعة المنبه المعطوبة، أو مثل بندقية آلية. ولهذا السبب، اعتبرت الصحف أنه من الضروري أن تخص مؤتمر الجراحين ببعض السطور على صفحاتها، وذلك بعد الإعلان الدعائي لأحدث «مايوه» وأخبار مباريات كرة القدم، وأخبار الجرائم.

تم حفل افتتاح المؤتمر في اليوم الأول. أما اليوم الثاني فخصص للمناقشات العامة. بعد ذلك، بدأ المندوبون بإلقاء تقاريرهم العلمية.

صعد إلى المنصة، الجراح الأمريكي الشهير، الدكتور ـ ك. كليزمان ـ بصحبة رجل متوسط العمر. وتجمد مراسلو وكالات الأنباء العالمية، ومراسلو الصحف، المتسلحون بالأقلام والدفاتر الصغيرة، وكانوا آذاناً صاغية. وضع مندوبو المؤتمر السماعات على آذانهم، واستعدوا لسماع كلمة الدكتور الأمريكي، بلغة من إحدى اللغات الأربع، التي عمل بها المؤتمر.

ـ الـزملاء المحترمون ـ بدأ الدكتور ك. كليزمان ـ سأحدثكم في مؤتمرنا العاشر هذا، عن أهم عملية جراحية أجريتها خلال خمسة وثلاثين عاماً في عملي كجراح. فكما هو معروف لكم، أن أحداً من الجراحين، لم يستطع تغيير صورة بصمات أصابع الإنسان. وتاريخ الطب لم يعرف سابقة كهذه. ولن تجدوا في المراجع الطبية ما يشبه ذلك. وأنتم مهما حاولتم، وبأية وسيلة كانت، نزع الجلد عن رؤوس الأصـابـع، فإن الجلد بنمـوه مرة ثانية، سيحتفظ لا محالة بالرسم السابق له. وبفضـل ذلك، فإن الشرطة تتمكن بسهولة تامة من إلقاء القبض على سارقي البنوك والقتلة المحترفين. أما أنا، فقد تمكنت من إيجاد وسيلة لتغيير شكل بصمات أصابع الإنسان. هو ذا انجازي الأخير. إنكم ترون إلى جانبي رجل أعمال أمريكا الشهـير، وملك التلقيح الاصـطناعي المستر توماس، ولديه اسم آخر ـ دجيك دربـوسكـول ـ واسمه هذا، موجود في سجلات المجرمين أصحاب السوابق في مكتب الشرطة الفيدرالية. عشرة أعوام والشرطة الأمريكية تحاول جاهدة أن تعثر على أثر له، لكن بلا فائدة. وهي عاجزة عن إلقاء القبض على هذا المحنك، مُخرِج أحشاء خزنات البنوك، لأنني أقوم بتغيير شكل بصمات أصابع المستر توماس، عفواً دجيك دربـوسكـول، ملك التلقيح الاصطناعي المحترم، بعد كل سطو لأحد البنـوك. أؤكـد لكم أيهـا السـادة، أن هذه العملية، هي من أصعب وأشهـر العمليات على الإطلاق. وافقوا أن تتقاسموا مع ما ستحصلون عليه من غنائم الخزنات، فإن دخلكم لن يكون سيئاً. والآن زملائي المبجلين، سأوضح لكم طريقة عمليتي هذه بواسطة الفانوس السحري. اعتبر مندوبو المؤتمر، أن الدكتور ك. كليزمـان هو أهم الشخصيات البـارزة في المؤتمـر العاشر للجراحين. لكن الجراح الانكليزي المستر ب. لينس، الذي تحدث بعده، استطاع ايقاظهم، فقد صعد هذا العالم الشهير إلى المنصة برفقة رجل ما أيضاً. قال:

ـ زمـلائي المحـترمين جداً، سأحدثكم الآن عن عملية مثيرة للغاية تعود لأيام الحرب. وهي جديرة بأن تزين صفحات تاريخ الطب العالمي كله. أنتم ترون إلى

جانبي هذا الرجل. إنه بطل الحرب العالمية الثانية، العريف ميتيو، الذي أرسل إلى العالم الآخر ستة وعشرين جندياً معادياً. لكن قذيفة العدو الغدارة قطعت رأسه للأسف. وقد استطعت إلصاق رأسه بجسمه الهامد بواسطة مرهم خاص. إن رأس ميتيو الآن، مثبت على كتفيه بشكل أقوى من السابق، لدرجة أنه لن ينفصل عن جسده حتى ولو انفجرت إلى جانبه قنبلة ذرية. والآن، سأفضي لكم بسر هذا المرهم العجيب.

وهنا بدأ الجراح الانكليزي بتحضير هذا المرهم السحري أمام أعين المندوبين المندهشة. كان الجميع على ثقة بأنهم لن يسمعوا خبراً أكثر إثارة. لكن الجراح الفرنسي أجبر مندوبي المؤتمر على تغيير رأيهم. إذ صعد إلى المنصة برفقة شقراء فاتنة في لباس السباحة، والذي بالكاد يخفي أعضاء جسمها المغرية. بدأ العلماء من الذكور، وقد دبّ الشيب في رؤوسهم، يتململون في كراسيهم. قال الفرنسي:

ـ الزملاء المحترمون جداً. سأعرض لكم الآن، نتيجة انجازي الأخير الخارق في حقل عمليات التجميل. وأنا كلي قناعة، بأنكم ستثمنون بجدارة عملي المتواضع بمعرفتكم، إن هذه الشقراء الفاتنة والتي أثارتكم جداً، ما هي إلا حماتي ذات الخمسة والستين عاماً.

صعق مندوبو المؤتمر من شدة الدهشة. وكانت دهشتهم تزداد بقدر ما كان الجراح الفرنسي يحدثهم من الوجهة العلمية الصريحة المحضة، عن أنه أراد الانتقام من زوجته التي خانته، فقام بإجراء عملية تجميل لأمها، تلك العجوز القبيحة، وحولها إلى ملكة جمال، وجعل منها عشيقته.

كان المؤتمرون يعرضون كشوفاتهم العلمية يوماً تلو الآخر في المؤتمر. وكل كشف كان أغرب من سابقه.

جاء دور الجراح الألماني. قال:

ـ إن موت الإنسان لا يعني بالتالي موت كل أعضائه فوراً.

لنأخذ ميتاً بالجلطة القلبية على سبيل المثال. صحيح أن قلبه لم يعد نافعاً، لكن أعضاءه الأخرى يمكن أن تكون سليمة تماماً. فالإنسان الميت بالسل، لا تموت إلا رئتاه من حيث الجوهر. وأنا لم أستسلم أمام حقيقة موت الناس في عز شبابهم بسبب كلية ما، أو قلب، أو معدة، وبفضل الأعضاء السليمة، التي لم تمت بعد، والمستأصلة من جثث أخرى، تمكنت من خلق إنسان سليم بشكل مطلق. هو ذا أمامكم!

جاء الجراح الألماني إلى المنصة برفقة شاب له جسم كجسم «أبولو» ـ انظروا إلى ساقيه. لقد كانتا سابقاً لرياضي مات بالزائدة الدودية. أما جسمه، فكان لأحد المصارعين الذي مات بسبب الغنغرينة في يده. أما رأسه، فكان لأحد مرضى السل.

اعتبر مندوبو المؤتمر، أنه إذا لم يعرض الجراح الياباني غداً كشفاً أكثر إدهاشاً، فإن عليهم أن يقروا، بأن أكثر العمليات إدهاشاً وأكثرها استحالة، إنما هي عملية الجراح الألماني الساحر، الدكتور غيونتر، الذي خلق إنساناً سليماً من أعضاء المرحومين الأموات، مثل نجار يصنع الكراسي والطاولات في حرفته.

وفي اليوم التالي، صعد الجراح الياباني خيمي شياما إلى المنصة برفقة رجل عجوز وقال: أمامكم ياباني. لم يقبلوه في الجيش أثناء الحرب العالمية الثانية بسبب عرجه. ولشدة حزنه، قام هذا الإنسان الوطني بطعن بطنه، وسقطت كل أحشائه على الأرض بسبب ذلك...

جاء يوم اختتام المؤتمر. وكان المشاركون فيه، قد تحدثوا عن انجازاتهم. وكل انجاز كان أكثر إثارة من سابقه. ثمة مندوب لم يقل كلمة. كان يجلس في الصف الخلفي ينظر بإجلال إلى زملائه.

قال رئيس المؤتمر له:

ـ سيدي الدكتور، هل يعقل أنك لم تقم بعملية مثيرة، كي تحدثنا عنها؟

ـ نعم، هناك حادثة مهمة جرت ـ أجاب الجراح ـ لكنها ليست بتلك الأهمية

التي تسمح لي بهدر الوقت الثمين لمندوبي المؤتمر المحترمين في التحدث عنها. إذ لا شيء يستحق الاهتمام بهذه الحادثة.

تعالت الأصوات في القاعة:

ـ نريد سماعها!

ـ على كل مندوب أن يقدم تقريره.

صعد الجراح الشهير إلى المنصة.

ـ حسناً، سأحدثكم إذا كنتم مصرين على ذلك. لقد اضطررت في الحقيقة، للقيام بعملية سخيفة لاستئصال اللوزتين.

تعالى الضحك في القاعة. وقد أثار استخفاف الزملاء حفيظة الجراح.

قال منزعجاً: انتظروا، لقد سميت عمليتي سخيفة تواضعاً مني... لكنني لن أحتمل سخريتكم. نعم، كانت تلك لوزتين عاديتين.

تعالت القهقهات في القاعة.

ـ استئصال اللوزتين!... وهل هذه عملية؟!

ـ أنا أرفض إجراء مثل هذه العمليات!...

ـ ألا يخجل من الحديث عن ذلك؟!

انطلق الشرر من عيني الجراح وقال:

ـ لو تعرفوا الشخص الذي استأصلت لوزتيه؟!

ـ حتى ولو كان الأمين العام للأمم المتحدة فلن يغير ذلك شيئاً!

اللوزتان هما اللوزتان.

تضرج الجراح المهان وصرخ قائلاً:

ـ لقد كان الشخص الذي أجريت له العملية صحفياً.

تابع المندوبون الضحك.

ـ حتى ولو كان صحفياً!...

ـ ولو كان تاجراً!...

ـ حتى ولو كان موظفاً! . . .

ـ جندياً! . . .

ـ لا فرق! . . .

ـ أنتم مخطئون أيها السادة. ففي ذلك الوقت، كان يسود في بلدي قانون صارم يمنع رجال الإعلام من فتح أفواههم منعاً باتاً. وبما أن ذلك الصحفي لم يجرؤ على فتح فمه، فقد اضطررت لاستئصال لوزتيه من خلال شرجه.

انقطع الضحك في القاعة فجأة، وتسمرت الابتسامات على الوجوه وقد لمعت أعين الجميع بالإعجاب والإجلال، ودوى تصفيق حار.

لقد وافق المندوبون بالإجماع، على اعتبار عملية استئصال اللوزتين هذه، كأهم حدث في المؤتمر العالمي العاشر للجراحين.

«لن نصبح بشراً»

ما أن يعلن أحد المرتابين في جلسة ما: «لا يا أخوتي، لن نصبح بشراً» حتى يبدأ الجميع بهز رؤوسهم: «نعم م م . . . صحيح تماماً، لن نصبح! . . . » - ولن تجد من يستاء قائلاً: «ما الذي تقولونه؟! يجب أن تحترموا أنفسكم!».

ذات مرة - وكان عمري آنذاك خمسة وعشرين عاماً - وكان دم الشباب يغلي في عروقي، اعترضت على ذلك، عندما كنت مسافراً على ظهر سفينة إلى جزر برنيس، إذ تذمر رجل متوسط العمر والله يعلم لماذا:

- أؤكد لكم، أننا لن نصبح بشراً!

وهزّ كل الجالسين في الصالون رؤوسهم موافقين معه.

اعترضت بحماس: لماذا لن نصبح؟ وأي بشر سنصبح! إننا سنصبح بشراً ندهش العالم بكل تأكيد.

كان المسافرون كما لو أنهم تواطؤوا معه، إذ صرخوا بصوت واحد:

- لا، لا، لن نصبح بشراً.

- بيننا وبين الناس مسافة طويلة!

- لن نصبح بشراً.

إن التأييد الجماعي لذلك الرجل، قد خفف من روعه، إذ قال:

- أتسمع يا بنيّ؟ إنهم جميعهم يؤيدونني. وهذا يعني، أننا حقيقة لن نصبح بشراً. فلا أحد يجبرهم أن يصرخوا كذلك.

- سنصبح بشراً، سنصبح - هكذا أكدت.

ابتسم الرجل وقال:

- إنك تقول يا بني، بأننا «سنصبح بشراً» سنصبح! . . . وهذا يعني، أننا لم نصبح بعد.

ومنذ ذلك اليوم، مرت أعوام كثيرة، وأنا طوال الوقت أفكر «لماذا لا نصبح بشراً؟».

لكن وجودي وراء القضبان آخر مرة، فتح عيني: إذ وجدت الإجابة على هذا السؤال أخيراً.

ففي السجن، كنت في زنزانة كبيرة للمعتقلين السياسيين. وكنت محاطاً هناك، بفئة العقول المختارة المستنيرة، وكبار رجال الأعمال، ومختلف المشاهير من محافظين ومديرين عامين وأعضاء سابقين في البرلمان، وشخصيات سياسية كبيرة، وموظفين مرموقين ومهندسين وأطباء. وقد أنهى معظم هؤلاء، دراستهم في أوروبا وأمريكا. كانوا في الخارج وعرفوا عدة لغات.

لكن، وبغض النظر عن أنني لم أتفق في الرأي وإياهم، فإنني مع ذلك، استفدت منهم الكثير الكثير. وقبل كل شيء، فهمت بفضلهم، لماذا لن نصبح بشراً.

وفي أيام الزيارات، كانت تصلني الأخبار السيئة فقط: إما أن أسرتي لم تتمكن من دفع إيجار البيت، أو أنهم رهنوا الدكان وهكذا، وهكذا من سيىء إلى أسوأ. كنت مسحوقاً حائراً. والأسوأ من ذلك كله، أن الحزن استحوذ عليّ.

وكـان أمامي مخرج وحيد: أن أكتب رواية فوراً. فقد أستطيع نشرها في إحدى الجرائد، وأحصل على قليل من المال. وموضوع الرواية التي كنت بصدد كتابتها، كان يجول في رأسي منذ زمن بعيد. وباتخاذي لهذا القرار، سلحت نفسي بالقلم ورزمة الأوراق، وانزويت على السرير. يجب ألا أضيع الوقت. ولتذهب هذه الثرثرة العقيمة وهذا الكسل إلى الشيطان.

لم أتمكن من كتابة عشرة أسطر، حتى تقدم مني أحد المعتقلين، وهو إنسان ذو عقل كبير مستنير، وأبلغني على الفور:
ـ لن نصبح بشراً، لا.. لن نصبح!...

ثم سألني: هل تريد أن أقول لك السبب؟ لقد درست في سويسرا وعملت ستة أعوام في بلجيكا. . .

ثم شرع يحدثني بشكل مفصل عن الحياة في هذين البلدين. أما أنا، فقد استأت جداً من هذا الإزعاج المفاجىء. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ كنت من وقت لآخر أخفض عيني، محاولاً إفهامه، بأنني مشغول جداً، وأنني أنتظر انصرافه عني، لكن للأسف، لم يفطن محدثي إلى ذلك، بل تابع غير آبه بي:

- إنك لن ترى هناك إنساناً واحداً لا يحمل كتاباً. فما أن تتوافر لدى السويسري أو البلجيكي بضعة دقائق حرة، حتى يفتح كتابه ويباشر في القراءة. إنهم يقرؤون في الباصات والقطارات وفي كل مكان. تراهم في بيوتهم يقرؤون ويقرؤون ويقرؤون. . .

- اوه. . . مدهش، مدهش! - قاطعته على أمل أن ينصرف عني ويريحني.

- طبعاً مدهش - تابع - والآن، انظر إلى هؤلاء المجتمعين هنا. كلهم يدّعي الذهنية، لكن أحداً منهم لا يحمل كتاباً بيده. . لا يا عزيزي، لن نصبح بشراً.

- وافقته قائلاً: أنت محق.

لكنني ما إن قلت له ذلك، حتى تضاعف حماسه وبدأ يحدثني عن البلجيكيين والسويسريين الذين ينكبّون على المطالعة.

حان وقت الغداء. نزلنا عن السرير في وقت واحد.

سألني:

- والآن، أصبح مفهوماً لك، لماذا لن نصبح بشراً؟

أجبته: نعم.

وهكذا أضعت نصف يوم في سماع محاضرة عن السويسريين والبلجيكيين المحبين للمطالعة.

التهمت غدائي بسرعة. صعدت إلى سريري مرة أخرى، وتابعت كتابة الرواية. كنت أفكر والقلم في يدي، ورزمة الأوراق على ركبتي. لكنني لم أكدْ

أكتب بضع كلمات، حتى تقدم مني أحد معارفي.
ـ ماذا تفعل؟
ـ أكتب رواية.
ـ لن تتمكن من فعل شيء هنا. . في هذه الضوضاء. هل كنت في أوروبا؟
ـ لا، لم أسافر خارج حدود تركيا.
ـ مؤسف. يجب أن تزور أوروبا، وسترى بأم عينك كل شيء. العيش هناك شيء رائع!. . إن السفر إلى هناك يوسع المدارك. لقد زرت أوروبا بأكملها تقريباً. لا يوجد بلد إلا وزرته. لكن أكثر الوقت قضيته في الدانيمارك وهولندة والسويد. هناك بالذات، يحترم الناس بعضهم بعضاً. حتى أنهم لا يرفعون أصواتهم كي لا يزعجون الآخرين. لكن انظر إلى ما يجري هنا. ضوضاء، صخب!. . ربما أريد أن أنام، أو أن أكتب شيئاً ما، أو أن أقرأ، فضلاً عن ذلك، قليلة هي الأشياء التي أود القيام بها؟ إنك لن تستطع كتابة الرواية في مثل هذه الضوضاء ولا بأي حال من الأحوال.
ـ باستطاعتي أن أكتب في الضوضاء، لكنني لا أستطيع الكتابة عندما يتمتم أحدهم في أذني مباشرة.
ـ يا عزيزي، لا شيء أفضل من الصمت، أليس كذلك؟ ومن أين لهم الحق في أن يزعجوك؟ إذ باستطاعتهم أن يخفضوا أصواتهم. خذ مثلاً الدانيمارك، السويد، هولندة. لا أحد هناك يتصرف كذلك. لقد ارتقوا هناك، لأنهم يحترمون بعضهم بعضاً.

ثم راح يتحدث، موضحاً بالعديد من الأمثلة عن لباقة الأوروبيين وتربيتهم.

أما أنا، فأخفضت رأسي إلى الورقة وبدأت الكتابة، بالأحرى تظاهرت بأنني أكتب. لا شك أن ذلك غير لائق. لكن ماذا كان بوسعي غير فعل ذلك؟
ـ عبثاً تحاول ـ قال محدثي ـ إنك لن تكتب شيئاً. فأنت ستحطم أعصابك فقط.

هنا ليست أوروبا. هل تعرف ما معنى أن تكون أوروبياً؟ هذا يعني، أن تكنّ مشاعر الاحترام للآخرين قبل كل شيء. أما نحن فماذا؟ ولهذا يا عزيزي، لن نصبح بشراً، لا، لن نصبح بشراً.

ولخوفي من أن يزعجني أحدهم مرة أخرى، أخفضت رأسي إلى الأسفل فوق الورقة قدر المستطاع.

لم أكد أكتب سطرين، حتى تقدم مني أحد معارفي المعتقلين في الزنزانة وقال:

ـ أتمنى لك النجاح في عملك!

ـ شكراً ـ أجبته.

جلس على سريري وقال:

ـ نحن بعيدون عن أن نصبح بشراً حقيقيين.

لم تنبس شفتاي بكلمة واحدة، رغبة مني في قطع الحديث من بدايته.

سأل: هل كنت في أمريكا؟

ـ لا.

ـ مؤسف!.. لو أنك عشت في أمريكا بضعة أشهر، فإنك ستفهم لماذا نحن متخلفون هكذا. الامريكيون ليسوا مثلنا. إنهم لا يضيعون وقتهم في الثرثرة الفارغة. ففي أمريكا يقولون: «Time is money» يعني، الوقت من مال. فالأمريكي لا يقترب منك إلا إذا كان له عمل معك فقط. أما عندنا في تركيا فماذا؟ لنأخذ أنفسنا على سبيل المثال، ماذا نفعل؟ لا شغل لنا سوى الثرثرة. وهذا غير وارد في أمريكا. وهم لهذا السبب ارتقوا هناك.

أما أنا، فما فتئت أزفر بأمل خفي مني، أنه سيفهم بأنني مشغول ويصمت وينصرف عني. لكنه تابع فلسفته وكأن شيئاً لم يكن. حان وقت العشاء. قال لي قبل الذهاب إلى هناك:

ـ لن نصبح بشراً، لن نصبح بشراً طالما أننا نضيع وقتنا في الثرثرة. أجبته: أنت محق تماماً.

التهمت العشاء بأسرع ما يكون، وعدت إلى العمل. يجب أن أكتب الرواية!.. الرواية!

ـ العمل هو أهم شيء. وما تبقى فليس مهماً.

تناهى إلى سمعي صوت أحدهم.

رفعت رأسي لأرى أحد الرفاق في الزنزانة.

ـ ما هو رأيك؟ سألني وهو يجلس على السرير المجاور.

ـ ومن ذا الذي يجادل؟ طبعاً يجب العمل ـ أجبته.

ـ لقد رباني أهلي على الطريقة الألمانية...

كنت مستعداً أن أنفجر من الغيظ، أما هو فتابع بحرارة:

ـ أنهيت المدرسة الألمانية في استامبول. وحصلت على تعليمي العالي في ألمانيا، واشتغلت هناك سنوات عديدة. إنكم لن تروا أحداً عاطلاً عن العمل عند الألمان. أما عندنا فكيف؟ لنأخذ على سبيل المثال كل من في هذه الزنزانة. لا، لا.. لن نصبح بشراً. بيننا وبين البشر الحقيقيين مسافة بعيدة.

لقد فهمت، أنهم لن يدعوني أكتب الرواية في النهار، إذ أنني سأحطم أعصابي فقط. لذلك وجب عليّ تأجيل العمل إلى الليل عندما سينامون.

أما محدثي فتابع يتحدث عن ألمانيا غير آبه بي:

ـ العطالة في ألمانيا ـ عار. والألماني لن يجلس مكتوف الأيدي، مهما كانت ظروفه. فهو لا بد انه سيجد ما يشغل نفسه به. إنه ببساطة، لا يمكن أن يجلس بلا عمل. لكن إليك المثل المناقض:

نحن هنا منذ عدة أشهر. فهل هناك أحد منا يعمل؟ وما أن تتطرق في الحديث عن ذلك، حتى يندهشوا قائلين: وما الذي يمكن عمله في السجن؟!

إن المثقف الألماني لا يقول كذلك. فهو سيبدأ بكتابة مذكراته، وملاحظاته، أو سيفكر بقضاياه، أو سيطالع الكتب. عموماً فهو لن يهتم بالتوافه. أما نحن فكيف؟ لا، إننا مهما يكن لن نصبح بشراً... انصرف عني

عند منتصف الليل فقط. أخيراً يمكن البدء بالعمل، إذ أن أحداً الآن لن يأتي ليلقي عليّ محاضرة عن: لماذا لن نصبح بشراً؟ لكنني أخطأت للأسف. اقترب مني واحد آخر، عاش سنوات عديدة في فرنسا. وقد حدثني بصوت خفيض كي لا يوقظ الآخرين. وحسب رأيه، أن الفرنسيين بارعون في تنظيم أوقات العمل والراحة. وهم لا يخلطون بين الإثنين. ثم نصحني ألا أعمل بعد منتصف الليل:

ـ نم الآن، وفي الصباح ابدأ الكتابة برأس طازج. لقد اختلطت أوقات العمل والراحة والتسلية عندنا. إننا نعمل في وقت الراحة، ونرتاح وقت العمل. ولهذا السبب عملنا لا يثمر. لهذا السبب، لن نصبح بشراً أبداً، لن نصبح!

وعندما انصرف، لم تكن لدي القدرة على متابعة الكتابة. فعيناي بدأتا تغمضان. استلقيت ونمت.

وفي الصباح، استيقظت باكراً، عندما كان الجميع لايزالون نائمين، وبدأت الكتابة من جديد.

ثمة أحد من معارفي في الزنزانة. وهو إنسان أكنّ له احتراماً خاصاً. عرّج عليّ أثناء عودته من المرحاض وصرح لي:

ـ الحال في انكلترا ليست كما هي عندنا! هل كنت في انكلترا؟

ـ لا.

ـ تصور أنك مسافر في أحد قطارات انكلترا. فجليسك في الغرفة لن يقول لك كلمة واحدة طوال الوقت. فلو أن ذلك يحدث عندنا فإنهم سيقولون: «أي فتور!.. أية غطرسة!» لكن سبب ذلك لا يعود إلى الفتور أو الغطرسة، بل إلى أدب السلوك ولطف المعاملة. أليس جائزاً أنك لا ترغب في التحدث وإياه، فمن أين له الحق في إزعاجك؟! ـ أما عندنا فماذا؟ صديقك كان أو لم يكن. مشغولاً كنت أو لم تكن، فهو لا عمل له، سوى فتح فمه وشحذ لسانه. ولهذا السبب بالذات، لن نصبح بشراً.

أما أنا، فأخذت الورقة التي كانت على ركبتيّ ورميتها تحت السرير، ثم وضعت القلم في جيبي.

كفى! . . . وهكذا تم القضاء على فكرة كتابة الرواية.

نعم، لم أستطع كتابة شيء في السجن. لكنني فهمت هناك حقيقة أهم بكثير من تلك الرواية المبتدعة. لقد فهمت، لماذا لن نصبح بشراً. والآن، ما أن يبدأ أحدهم بحضوري قائلاً بتذمر: «لا، لن نصبح بشراً.» حتى أرفع يدي وأصرخ:

ـ أعرف لماذا! . . .

وأخيراً أبصرت. وأنا مدين للسجن بذلك.

«شهادة ميلاد»

دخلنا المقهى الريفي عند المساء. كان يعج برواده الفلاحين، الذين رحبوا بنا بشكل فوضوي:

ـ أهلًا وسهلًا.

ـ يا مرحبا.

ـ تسعدنا رؤيتكم.

ـ تفضلوا. .

أمـا نحن، فقـد صافحنا كل واحد على حده. وقد استغرق ذلك عشر دقائق. وعندما هدأ الجميع، تابع الفلاح المسن، الجالس في الزاوية حكايته:

« . . . وهكذا تزوج مولود، ورزقه الله بولد. لكن لم يمر شهران على ولادة الطفل حتى توفي. وبعد سنة، أنجبت زوجة مولود طفلاً آخر، سرعان ما توفي أيضاً.

هدّد مولود زوجته قائلاً: إن توفي الثالث فأنت طالقة. لكن ذلك لم يجد نفعاً. إذ كلما أنجبت طفلاً، سارع إلى الموت. بدّل مولود أربع زوجات. لكن بلا جدوى. فالأطفال كانوا يولدون ميتين أو يموتون حال رؤيتهم للنور. ناهيك عن الإجهـاضـات. لقـد أرسلوا إلى الجنة جميعهم ولم يبلغوا الشهر من العمر. أما الموظف المسؤول عن تسجيل الولادات في المنطقة، فقد شرح لمولود سبب خيبته قائلاً:

ـ إن أنجالك يموتون لأنك لا تنظم لهم شهادات ميلاد.

أخذ مولود بنصيحة الموظف. وعندما أنجبت زوجته التالية طفلاً، كان أول ما قام به، هو الحصول على شهادة ميلاد له في المدينة. وفي الحقيقة لقد حصل

على هذه الشهادة، لكن ذلك لم يجد نفعاً. فقد مات الطفل. حزن مولود حزناً شديداً. وحشة الشيخوخة كانت تقترب منه.

ـ ترى، هل ستموت كل سلالتي هكذا؟ ـ قال مكروباً ـ وهل سأبقى بلا وريث؟

أصبح الرف العُلْوي في الخزانة يغصّ بشهادات الأطفال الميتين. وذات مرة، ندب مولود حظه لأحد السحرة المشهورين. نصحه الساحر:

ـ دع زوجتك تكلف سبعاً من العذارى الطاعنات في السن، كي يغزلوا حبلاً من القطن عند الفجر ولمدة سبعة أيام.

وهكذا فعلت زوجة مولود. وعندما أصبح الحبل جاهزاً، ربط الساحر به بطن الأم الخائبة وقال: عندما سيولد الطفل، أنذريه لله. وسمّه ساطيلميش* . . .

وبعد عام أنجبت زوجة مولود ولداً. لم يمت هذه المرة. وقد رأى مولود، أنه من غير الضروري تنظيم شهادة ميلاد للطفل: «الخزانة تغص بشهادات الميلاد. ليختر لنفسه واحدة منها عندما يكبر».

كان مولود منهمكاً في العمل حتى أذنيه. ثمة ما يجب فعله للبيت. عليه أن يحرث الأرض ويرعى الأغنام. وكل ذلك يتطلب عناية واهتماماً. أما ساطيلميش، فلا يزال صغيراً، غير قادر على المساعدة. وتربية الطفل تكلف جداً. وهكذا مرت الأيام. وأصبح عمر ساطيلميش عامين. وبعد أن فكر مولود ملياً قرر أن يزوج ولده. اختار له فلاحة قوية متينة عمرها ثلاثون عاماً.

فكر مولود: «إن وجود واحدة كهذه في البيت، سيجعل العمل يغلي ويفور».

لكن والد العروس وضع شرطاً:

ـ يجب أن يتم عقد الزواج بشكل قانوني.

* ساطيمليش: تعني «المنذور لله».

لقد خاف العجوز أن لا تحصل ابنته على إرث في حال موت زوجها، إذا لم يكن عقد الزواج قانونياً.

وافق مولود على الزواج القانوني. لكن ساطيلميش لايزال طفلاً. لذلك، قرر مولود أن يستشير محامياً.

قال المحامي:

- سنزيد من عمر ساطيلميش! - ثم رفع عريضة زواج للسلطات المختصة.

وفي ذلك الوقت، حان موعد استدعاء أطفال مولود الميتين إلى الخدمة الإلزامية. وذات صباح، داهمَ الدركي بيت مولود:

- أي.. مولود.. أعطنا أولادك - إن خمسة منهم لم يأتوا إلى الفحص الطبي الأول. وأربعة آخرون يعتبرون في عداد الفارين من الجندية. وأنت تعرف، أن عقوبة التكتم على الفارين من الجيش أكبر من عقوبة الفرار ذاته.

- لو كان عندي مثل هذا العدد من الأولاد - أجاب مولود - لكنت قد شكلت جيشاً خاصاً بي.. ليس عندي سوى هذا البرغوث.

قال ذلك وهو يشير برأسه ناحية ساطيلميش.

- أرني شهادة ميلاده.

أخذ مولود أول شهادة ميلاد وقعت تحت يده في الخزانة وسلمها للدركي. نظر الأخير إليها وقال:

- مولود.. أها.. أها... إن ابنك فارّ من الجيش!

- لا يعقل أبداً - اعترض مولود - وهل باستطاعة هذا الطفل الصغير أن يحمل بندقية؟ هل بإمكانه أن يحارب؟ إنه لا يقدر على غسل الكؤوس أو غسل سرواله. فهو لايزال صغيراً.

اضطر مولود في نهاية الأمر أن يستشير محاميه. وفي هذه المرة أجابه المحامي:

- سنقلل من عمر ساطيلميش.

ونظم وثيقة أخرى لهذا الغرض.

طالبت المحكمة بثلاثة شهود. وكان موسم الحصاد. بحث مولود عن ثلاثة عاطلين عن العمـل في القرية. أعطاهم أجرة الطريق والزوادة. بالإضافة إلى خمس ليرات لكل منهم، ثم توجه الشهود إلى المدينة.

وقف أحد الشهود أمام القاضي، وبعد الأسئلة التقليدية سأله القاضي:

ـ كم عمر ساطيلميش؟

أجاب الفلاح:

ـ سيدي القاضي، جاءني جابي الضرائب ذات مرة وقال: «يجب عليك أن تدفع للحكومة ثمانين ليرة. وديونك السابقة تبلغ مئة وثمانين ليرة.. إدفع!» وأنا لم أجمع مثل هذا المبلغ، ثم انهم صادروا أغنامي. في ذلك العام ولد ساطيلميش.

ـ حسناً، ولكن متى صادروا أغنامك؟

ـ صادروا أغنامي في ذلك العام، عندما كبل الدرك «ميميش» بالأصفاد ورموه في السجن لتخلفه عن دفع ضريبة الطريق.

ـ ألا تذكر التاريخ؟

ـ كيف لا أذكر؟ أذكر... لقد حدث هذا في ذلك العام عندما بقر أحمد بطن الأعور «أليس» وعندما تشاجر الجيران بسبب ماء السقاية.

ـ ولكن متى كان ذلك؟

ـ في ذلك العام حصل جفاف، وذهبت القرية كلها لأداء صلاة الإستسقاء.

ـ حسناً، لكن في أي عام كان ذلك؟ وفي أي شهر؟ هل تعرف ذلك؟

ـ وكيف لا؟! كان في ذلك العام، عندما نقل المرحوم والدي حزمة الحطب على الحمار. قبض عليه حراس الغابات وسجنوه...

تبين أن القاضي يعرف هذه الواقعة. ولهذا أكّد أن عمر ساطيلميش سنتان فعلاً.

سأل أحد الفلاحين الجالسين في المقهى:

ـ وماذا عن زواج ساطيلميش؟

تابع الرواي:

ـ لكي يزوجوا ساطيلميش، وجب عليهم زيادة سنّه. ولكي يتجنب المصاريف الزائدة، قرر مولود استحاله نفس الشهود لهذه القضية وإنهاء هذا العمل في اليوم ذاته.

وبعد الغداء، جاء الشهود إلى المحكمة مرة أخرى. سأل القاضي الشاهد الأول عن عمر ابن مولود. وعلى ما يبدو فإن نصائح المحامي لم تذهب سدى. فقد راح الفلاح ينطق بفصاحة ما بعدها فصاحة:

ـ سيدي القاضي، منذ أربعين عاماً لا أكثر ولا أقل، وفي الخامس من نيسان، يوم الجمعة، وفي الساعة الثالثة وعشر دقائق صباحاً حسب التوقيت المحلي، ثانية إثر ثانية، كنت ماراً بالقرب من بيت مولود وسمعت بكاء طفـ. . .

ـ مهلك، مهلك ـ قاطعه القاضي ـ إنني لا أذكر مثل هذه التفاصيل عن ولادة ابني نفسه، فكيف لك أن تتذكر ذلك عن ولد غريب؟

ـ هكذا. . . أعرف.

حدق القاضي طويلاً بالشاهد وقال:

ـ اسمع، ألست أنت الذي شهد في الصباح، بان عمر ساطيلميش عامان؟

ـ نعم ـ أجاب الفلاح ـ قضية الصباح شيء، والقضية الآن شيء آخر تماماً.

نظر القاضي إلى شهادة ميلاد الشاهد وصرخ:

ـ أيها الوقح! ألا تخشى الله؟!، أنت نفسك لا تتجاوز الرابعة والعشرين من العمر، فكيف يمكنك أن تعرف ما جرى منذ أربعين عاماً؟

زعل الشاهد وقال:

ـ إنك تهينني يا سيدي القاضي، كما أنني لم أقل لك، بأنني رأيت ذلك بأم عيني. هكذا بالذات قال جدي لعمتي، وعمتي قالت لزوجها، وزوجها حدث الفلاحين عن ذلك في المقهى، وهكذا حتى وصل ذلك إلى سمعي.

استدعى القاضي الشاهد الثاني. بدأ الأخير بلا تلعثم:

ـ لا أكثر ولا أقل، منذ خمسة وأربعين عاماً، وفي الخامس من نيسان، يوم الجمعة، صباحاً باكراً. . .

توجه القاضي إلى الشاهد الثالث. أما هذا الأخير فبدأ يقول:

ـ سيدي القاضي، لا أكثر ولا أقل، منذ خمسة وأربعين عاماً، وفي الخامس من نيسان. . .

طرد القاضي الشهود الثلاثة من المحكمة. . .» وصمت الراوي.

سأله أحد الحاضرين:

ـ إذاً لم يزوجوا ساطيلميش؟

ـ وكيف لا؟ لقد زوجوه، وعقد الإمام قرانهما. وأعطى مولود لوالد العروس ثورين كمهر. والشريعة تنص على شنق البريء بشهادة شخصين. استمع الإمام إلى الجميع وقال: «الإثم يقع على عاتق الشهود».

وهكذا زوج مولود طفله من فتاة متينة كالفرس. كانت فاطمة تذهب للعمل في الأرض. وتذهب إلى الطاحون، وتجلب الحطب من الجبال. بالإضافة إلى أنها كانت تغسل سراويل زوجها وتهز له السرير.

الفهرس

إصدارات حديثة

- **العشق الجنسي والمقدس**

تأليف: فيليب كامبي

- **العلاقة بين الثكنة والمركز**
(الكيان الصهيوني والولايات المتحدة

تأليف: د. الياس شوفاني

- **طريقة مونتسوري في تربية الطفولة المبكرة للأم والمعلمة**

تأليف: إليزابيت ج. هينستوك

- **العنف والمقدس**

تاليف: رينيه جيرار

- عين الزهور «سيرة ضاحكة»

تأليف بوعلي ياسين

- عمل الدعاة الاسلاميين في العصر العباسي

تأليف: خيرالله سعيد

عزيز نسين

أسفل السافلين



صمم الغلاف: د. مجد حيدر

دار الحصاد للنشر والتوزيع

دمشق ص. ب: ٤٤٩٠

هاتف: ٢٤٦٣٢٦